باولو كويليو

الخيميائي

ساحر الصحراء

الرواية الأكثر مبيعا فى العالم



الخيميائي

فريق العمل

الترجـــمة : خالد السيد
تدقيق لغــوي: مجموعة ضمه
الإخراج الفني: إيمان عبد الشافي
تصميم الغلاف: هشام حسين
كمبيـــوتر: خالد احمد عبد القادر

المدير العام
وائل احمد عبد القادر



ص.ب ٢٩٣٠

الحرية- هليوبوليس - القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون:٢٢٥٣٨٣٥٩(٢٠٢)+

موبايل:٠١٢٤٨٩٣٣٨٢(٢)+

البريد الإلكترونى

info@ecabook.com

موقعنا علي شبكة الانترنت

www.ecabook.com

حقوق الملكية الفكرية

بطاقة الفهرسة

كويليو ، باولو
الخيميائى/ باولو كويليو. ــ ط١
القاهرة:المجمع الثقافي المصري
٢٠٨ ص ١٤٤ × ٢٠
١ ــ القصص البرتغالية
أ ــ العنوان
٨٦٣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٠/١٥١٩٤

الترقيم الدولي ISBN

977-17-9287-3

الخيميائي

باولو كويليو

ترجمة: خالد السيد

تدقيق لغوي: مجموعة ضمه



نشر الكتاب في الأصل باللغة البرتغالية بعنوان:

O Alquimista

تمهيـــد

تناول الخيميائي بيده كتاباً، كان قد أحضره أحد أفراد القافلة، كان الكتاب بلا غلاف، ولكنه استطاع على الرغم من ذلك أن يتعرف على اسم مؤلف هذا الكتاب.

اسمه (أوسكار وايلد)، وبينما هو يقلب صفحاته، وقع نظره على قصة كانت تتحدث عن (نرسيس) أو (نرجس).

لاشك أن الخيميائي يعرف أسطورة (نرجس) ذلك الشاب الوسيم الذي يذهب كل يوم ليتأمل حسن وجهه على صفحة ماء البحيرة.

كان مفتوناً للغاية بصورته، حتى سقط ذات يوم في البحيرة، وغرق فيها، وفي المكان الذي سقط فيه نبتت زهره، سميت باسمه: (زهرة النرجس).

لكن الكاتب لم يقف عند هذا الحد، بل قال أنه بعد موت نرجس، جاءت الإورديايات (آلهة الغابة) إلى ضفة البحيرة العذبة، فوجدتها قد تحولت إلى وعاء من الدموع المرة، فسألتها:

- لماذا تبكي أيتها البحيرة ؟

أجابت البحيرة:

- إنني أبكي من أجل نرجس .

ردت آلهة الغابة: لا عجب في ذلك، فقد كنا جميعا نلاحقه دوما في الغابة لنتمتع بالنظر إلى وجهه البديع، ولكنك كنت أنت الوحيدة التي تستطيعين مشاهدة حسنه وجماله عن كثب.

ردت البحيرة مستغربة:

- أكان نرجس جميلاً ؟!

وكأنها لم تره من قبل.

ثم مكثت البحيرة صامتةً للحظات وقالت:

- إنني أبكي من أجل نرجس فعلا ،لكنني لم ألحظ قط أنه كان جميلاً، إنما أبكيه لأنه في كل مرة انحنى فيها على ضفافي كنت أتمكن من أن أرى في عينيه انعكاساً لجمالي.

((إنها لقصة جميلة جداً)).

هكذا قال الخيميائي.

القسم الأول

كان يُدعى سانتياغو.

كان النهار على وشك أن ينتهي عندما وصل بقطيعه أمام كنيسة قديمة مهجورة، سقفها قد انهار منذ زمن بعيد. وقد نمت شجرة جميز عملاقة في الموضع الذي كان يوجد فيه المذبح.

قرر أن ينام في هذا المكان، فأدخل نعاجه من الباب المحطم، ووضع بضع ألواح من الخشب ليمنع بها نعاجه من الفرار أثناء الليل. لم يكن هناك ذئاب في تلك المنطقة. ولكن، ذات مرة هربت نعجة فكلفه ذلك إضاعة نهار بكامله في البحث عنها، مد معطفه على الأرض وتمدد، وجعل من كتابه الذي فرغ من قراءته وسادة.

قبل أن يستغرق في النوم، فكر بأن عليه قراءة كتب أكثر، وأن يكرس لإنهائها وقتاً أكبر، وسوف يكون له منها وسائد أكثر راحة من أجل الليل. وعندما أفاق، كانت العتمة لم تزل قائمة، نظر إلى الأعلى فرأى النجوم تلمع من خلال السقف الذي انهار نصفه.

فقال في نفسه:

-كنت أتمنى فعلاً لو أنني قد نمت لفترة أطول.

فقد رأي حلماً، إنه هو نفسه حلم الأسبوع الماضي، ومن جديد أفاق قبل نهايته.

نهض وشرب جرعة من الخمر، ثم تناول عصاه، وأخذ يوقظ

نعاجه التي كانت ما تزال راقدة، وقد لاحظ أن معظم البهائم تستعيد وعيها وتتخلص بسرعة من نعاسها وهو لم يفق بعد، وكأنما هناك قدرة غريبة قد ربطت حياته بحياة تلك الأغنام التي تطوف معه البلاد منذ عامين سعياً وراء الماء والكلأ.

قال في نفسه بصوت منخفض:

- قد تعودت تلك النعاج عليَّ فعلاً لدرجة أنها صارت تعرف مواقيتي، وبعد لحظة من التفكير بدا له أن العكس هو الصحيح، إذ أنه هو الذي قد اعتاد عليها وعلى مواقيتها.

كانت بعض النعاج تماطل بالاستيقاظ، فكان يوقظها واحدة تلو الأخرى بعصاه، منادياً كل نعجة منهم باسمها، فقد كان مقتنعاً بمقدرة النعاج على فهم ما يقول، وكان يقرأ لها مقاطع من بعض الكتب، أو يتحدث إليها عن عزلته أو استمتاعه بحياته في الريف، ويروى لها آخر المستجدات التي رآها في المدن التي اعتاد أن يمر بها.

ومع ذلك، منذ أول أمس، لم يكن لديه ما يتحدث عنه مع نعاجه سوى تلك الفتاة التي تسكن في المدينة التي لم يبقى على الوصول إليها سوى أربعة أيام، لم يكن قد زارها إلا مرة واحدة في العام الماضي.

عندما دله أحد أصدقائه على تاجر يملك متجراً للمنسوجات، وكان التاجر يفضل أن يجز صوف أغنامه أمام عينيه، كي يتحاشى الوقوع ضحية للغش، وعندما ذهب إليه كان المتجر مكتظا بالزبائن، فطلب منه

التاجر أن ينتظر بالخارج حتى المساء.

فجلس على رصيف المتجر، وأخرج من حقيبته كتاباً، فسمع صوت امرأة كانت بجواره يقول:

- لم أكن أعلم أن بإمكان الرعاة قراءة الكتب.

كانت هذه الفتاة تمثل نموذجاً لنساء الأندلس بشعرها الأسود المنسدل على كتفيها، وعينيها اللتين تذكران على نحو غامض بالفاتحين العرب القدماء.

فأجابها الراعي:

- ذلك لأن النعاج تعلم المرء أشياء أكثر مما تحويه الكتب.

ودار بينهما حديث طويل امتد إلى أكثر من ساعتين، فأخبرته أنها ابنة التاجر، وحكت له عن الحياة في القرية، وعن رتابة الأيام فيها، وحكى هو لها عن الريف في الأندلس، وعن الأشياء الجديدة التي رآها في المدن التي مرّ بها.

كان سعيداً جداً لأنه أصبح غير مجبراً على التحدث مع أغنامه دائماً.

سألته الفتاة:

-كيف تعلمت القراءة؟

-كسائر الناس، في المدرسة.

- طالما أنك تجيد القراءة، لماذا صرت هكذا مجرد راعٍ فقط ؟

سكت الفتى كي لا يرد على هذا السؤال، لأنه كان على يقين من أن الفتاة لن تفهمه.

تابع حديثه عن أسفاره المتعددة، وعيناها العربيتان الصغيرتان تتسعان تارة وتضيقان تارة أخرى، أحيانا من الدهشة وأخرى من المفاجأة.

كان يشعر أن الوقت يمر سريعاً، وتمنى لهذا اليوم ألا ينتهي، وأن يبقى والدها مشغولاً لوقت أطول، وأن يطلب منه الانتظار ثلاثة أيام.

وانتابه إحساس لم يشعر به من قبل أبداً، إنه الرغبة في الاستقرار فى المدينة وبالذات مع تلك الفتاة ذات الشعر الأسود، فلن تكون الأيام رتيبة متشابهة، لكن التاجر، ظهر أخيراً، وطلب منه أن يجز له صوف أربع نعاج، ثم دفع إليه ثمن الصوف ودعاه إلى المجيء في العام القادم.

وها هي الأيام قد مرت ولم يتبقى سوى أربعة أيام من أجل الوصول إلى تلك البلدة، كان مبتهجاً وقلقاً في الوقت ذاته من أن تكون الفتاة قد نسيته، فالرعاة الذين يمرون هناك لجز صوف أغنامهم كثيرون.

قال متحدثاً إلى أغنامه:

((لا أهمية لذلك فأنا أيضاً أعرف فتيات أخريات في مدن أخرى)).

لكنه كان في قراره نفسه يدرك أن لقاءه بها له أهميته، وأن الرعاة مثل

البحارة أو التجار المتجولين، متى ذهبوا إلى مدينة يجدون فيها من ينسيهم متعة التجوال في العالم بكل حرية.

ومع أشعة الشمس الأولى، بدأ الراعي يسوق أغنامه باتجاه المشرق.

قال في نفسه:

((إن النعاج ليست بحاجة على الإطلاق إلى اتخاذ قرار لكي تتبعني فهي تتبعني دائماً، وبقدر ما سيظل راعيها عارفاً بأفضل المراعي الأندلسية بقدر ما ستبقى تلك الأغنام صديقاته، فحتى لو تشابهت الأيام بعضها الآخر، مكونة ساعات ممتدة بين طلوع الشمس وغروبها، حتى لو أن تلك النعاج لم تقرأ قط أي كتاب خلال حياتها القصيرة، حتى لو جهلت لغة البشر الذين يروون ما يجرى في القرى، فهي تكتفي بالماء والكلأ، وهذا بالفعل كافٍ، وفي المقابل فهي تمنح صوفها، وصحبتها بسخاء، ومن وقت لآخر لحمها أيضاً)).

ثم تابع: ((... ولو أنني بين لحظة وأخرى قد تحولت إلى وحش، وأخذت بذبحها واحدة تلو الأخرى. فإنها لن تدرك ما يحدث إلا عندما يوشك القطيع على الهلاك، وذلك لأنها تثق بي، ولم تعد تعتمد على غرائزها. وهذا كله لأنني أنا الذي أسوقها إلى المراعي)).

بدأ الراعي يستغرب أفكاره ويشعر أنها شاذة.

فربما كانت الكنيسة مع شجرة الجميز بداخلها مسكونة بالأرواح.

أليس هذا هو السبب الذي جعل هذا الحلم يراودني مرة أخرى ؟

وهل لهذا أشعر بالغضب تجاه نعاجي، وهن صديقاتي المخلصات دوماً؟

احتسى الخمر الذي تبقى لديه من عشاء ليلة الأمس، وشد معطفه على جسده، فهو يعلم أن الشمس ستكون في أوجها بعد بضع ساعات وسيصبح الطقس حاراً جداً، لدرجة لن يستطيع معها اصطحاب قطيعه عبر الريف.

في تلك الساعة من الصيف، كانت أسبانيا كلها غافية، الحرارة مرتفعة حتى في الليل، وخلال ذلك الوقت كله يتوجب عليه أن يحمل معطفه معه. وكلّما كانت تتملكه الرغبة في الشكوى من عبء حمل المعطف، كان يتذكر أنه بفضله يواجه برودة الصباح الباكر.

إن هذا المعطف إذن مثل الراعي له ما يبرر وجوده، فبعد سنين من الترحال في سهول الأندلس، صار يعرف عن ظهر قلب أسماء مدن المنطقة كلها، وكان هذا ما أعطى لحياته معنى.

إنه الترحال ...

كـان ينوي هذه المرة أن يشـرح للفتاة، كيف يعرف راع بسيط القراءة؟

لقد كان يتردد حتى سن السادس عشرة على المدرسة الإكليريكية، وكان والداه يرغبان في أن يصبح قسيساً، ليغدوا فخراً لذويه من الفلاحين البسطاء، الذين يكدحون في سبيل الماء والغذاء، مثل نعاجه. ودرس اللاتينية والأسبانية واللاهوت، لكنه منذ طفولته المبكرة كان يحلم بمعرفة العالم، وبكسب معرفة أفضل من مجرد معرفة الذات الإلهية أو آثام البشر.

وذات مساءٍ جميل، وهو ذاهب لرؤية أهله، تسلّح بالشجاعة وأخبر والده بأنه لا يريد أن يكون كاهناً، بل يريد السفر.

فقال له والده :

-يا بني، إن رجالاً من العالم بأسره قد أتوا إلى هنا، ومرّوا بقريتنا، إنهم يأتون إلى هنا باحثين عن أشياء جديدة، يذهبون إلى الهضبة لزيارة القصر ويجدون أن الماضي أفضل من الحاضر، سواء كانوا ذوي شعر فاتح، أو ذوي بشرة سمراء، فهم يشبهون رجال قريتنا.

قال الفتى:

- لكنني لا أعرف قصور البلاد التي قدِم منها هؤلاء الرجال.

تابع الأب:

- عندما رأى هؤلاء الرجال حقولنا ونساءنا تمنوا العيش هنا.

قال الفتي:

-أريد أن اعرف نساء وحقول وأراضي البلاد التي قدِم منها هؤلاء الرجال، لأنهم لا يبقون بيننا.

قال الأب:

-لكن هؤلاء الرجال يملكون مالاً وفيراً يمكنهم من الترحال، أما عندنا فالرعاة وحدهم هم من يستطيعون رؤية مختلف البلدان.

قال الفتى فى حزم:

- إذاً سأصبح راعياً.

لم يضف الأب شيئاً بعد ذلك، وفي صباح اليوم التالي أعطى لابنه كيساً من النقود، يحتوي على ثلاث قطع ذهبية أسبانية قديمة، قال له وهو يعطيه إياها:

-ذات يوم، وجدتها في أحد الحقول، وكنت أعتقد أنها حق للكنيسة بمناسبة ترقيتك فيها، لكن خذها واشترى لنفسك بها قطيعاً، واذهب عبر العالم، إلى أن يأتي اليوم الذي تعلم فيه أن قصرنا هو الأعظم، ونساءنا هن أجمل النساء، ومنحه بركته.

رأى الولد في عيني والده الرغبة في الترحال أيضاً، رغبة تعيش في أعماقه، رغم عشرات السنين التي حاول أن يمضيها في المكان نفسه.

تلوّن الأفق باللون الأحمر، ثم بدت الشمس.

تذكر الشاب الحديث الذي دار بينه وبين والده، فشعر بالسعادة، كان قد عرف من قبل كثيراً من القصور، وكثيراً من النساء، لكن أياً منهن لا تعادل تلك التي ينتظرها بعد مسيرة يومين من الآن، كان يمتلك معطفاً، وكتاباً وبإمكانه أن يبادله مقابل آخر، وقطيعاً من الغنم، والأكثر من هذا كله، أنه كل يوم يتحقق حلم حياته الكبير: الترحال ...

وعندما سيتعب من التجوال في ريف الأندلس، فإنه يستطيع بيع أغنامه ليصبح بحاراً، وعندما يمل البحر، فإنه سيكون قد تعرّف على مدن كثيرة، ونساء كثيرات، وفرص عديدة ليظل سعيداً.

ثم تساءل وهو يشاهد بزوغ الشمس:

((كيف يمكن للمرء أن يبحث عن الإله في مدرسة إكليريكية ؟)).

لم يكن قد جاء إطلاقاً حتى هذه الكنيسة، مع أنه مرّ من هنا مرات عديدة.

العالم كبير، بلا نهاية، ولو ترك أغنامه تقوده لبعض الوقت، لوصل إلى اكتشاف أشياء جديدة ومفعمة بالفائدة. ولكن، المشكلة هي أنها لا تعي أنها تعبر دروباً جديدة كل يوم، ولا تلاحظ أن المراعي تغيرت، وأن الفصول متباينة، لأنه ليس لديها ما يشغلها سوى الماء والكلأ.

قال في نفسه:

((إن الشيء نفسه يجري لكل الناس حتى بالنسبة لي فأنا لم أفكر بامرأة أخرى منذ قابلت ابنة ذلك التاجر)).

نظر إلى السماء، وقدّر أنه سيصل إلى مدينة (طريفة) قبل وقت الغداء، هناك... سيستطيع مبادلة كتابه بآخر أكبر حجماً، وتعبئة زجاجته خمراً، وأن يهذب لحيته، ويقص شعره، فعليه أن يكون على أتم استعداد للقاء الفتاة ، ولم يكن يريد حتى أن يتصور احتمال إمكانية وصول راعٍ آخر قبله، يملك من الغنم أكثر منه، قاصداً طلب يدها.

قال في نفسه:

((إنها تماماً إمكانية تحقيق حلم يجعل الحياة ذات أهمية))، وكان يرفع نظره نحو السماء وهو يسرع في خطواته.

لقد تذكر لتوه أن هناك في (طريفة) امرأة عجوز تعرف تفسير الأحلام. وفي هذه الليلة راوده الحلم الذي كان يراوده من قبل...

إنه الحلم القديم نفسه ..

قــادت المرآة العجوز الفتى إلى غرفـة داخـل المنـزل يفصـلها عـن الصالة ستارة بلاستيكية متعددة الألوان، كانـت هنـاك طاولـة، وصـورة السيد المسيح، وكرسيان.

جلست العجوز، وطلبت منه الجلوس، ثم أمسكت بيديه وأخـذت بالدعاء بصوت منخفضٍ جداً، كان هذا أشبه ما يكون بصـلاة غجريـة، لقد التقى كثيراً من الغجر في دربه من قبل، فقـد كـانوا يسـافرون أيضـاً، لكـنهم لم يكونـون يهتمـون بـالغنم، بـل أن الشـائع بـين النـاس هـو أن الغجري يقضي وقته في خداع الناس، ويقال أيضاً أن هنـاك عهـداً بيـنهم وبين الشـيطان، وأنهـم يخطفـون الأطفـال، ليجعلـوا منهم عبيـداً لهـم في مخيماتهم الغامضة.

عندما كان الفتى طفلاً كان كثير الخـوف، وتـراوده فكـرة أن يختطفـه الغجر، وقد عاوده هذا الخوف القديم حينما أمسكت العجوز بيديه.

حاول أن يطمئن نفسه: ((لكن توجد هنا صورة السيد المسيح)).

لم يكـن يريـد ليديـه أن ترتجفـا، أو أن تلاحـظ العجـوز خوفـه، وفي صمت اخذ يتمتم بصلاته.

قالت العجوز دون أن تفارق عيناها يد الفتى:

- أمرٌ مثير !

وابتسمت من جديد، أما هو فقد كان يشعر من وقت إلى آخـر بثـورة

أعصابه، يداه أخذتا ترتجفان رغماً عنه، ولاحظت العجوز ذلك، فصمم أن يسحبها على الفور ثم قال:

- أنا لم آتِ إلى هنا من أجل قراءة الكف.

وهو الآن نادماً على دخوله هذه الدار، وبعد لحظة فكر أنه من الأفضل أن يدفع قيمة الاستشارة وينصرف دون أن يعرف شيئاً، فقد علق دون شك أهمية كبيرة على حلم تكرر.

قالت العجوز:

-لقد جئت تسألني عن الأحلام، والأحلام هي لغة الله، وعندما يتكلم الله بلغة البشر. فأنا أستطيع تفسيرها، لكنه عندما يتكلم بلغة روحك، فلن يفهمه أحد سواك، وعلى أية حال، عليك أن تدفع لي ثمن الاستشارة.

ظن الفتى أنها حيلة أخرى، وعلى الرغم من كل شيء فإنه قد قرر أن يجازف ويروي لها حلمه.

ولما لا، إنه يتعرض دائماً لخطر الذئاب، أو لخطر الجفاف، وهذا تماماً ما يجعل من مهنته مهنة هامة ومثيرة.

قال الفتى:

- لقد راودني الحلم ذاته، مرتين متتاليتين، كنت متواجداً مع أغنامي على أرض أحد المراعي، حينما ظهر طفل وأخذ يلعب مع الأغنام، وأنا

لا أحب كثيراً أن يأتي أحد ليلهو مع نعاجي، فهي تخاف من رؤية أشخاص لا تعرفهم، لكن الأطفال ينجحون دائماً في اللهو معها دون أن يسببوا لها الخوف، إنني أجهل لماذا، ولا أعرف كيف تستطيع الحيوانات معرفة أعمار الكائنات البشرية.

قالت العجوز :

-ارجع إلى حلمك، فلدي قدر على النار، بالإضافة إلى أنك لا تملك الكثير من المال لتأخذ وقتي كله.

أردف الراعي وهو مرتبكاً قليلاً:

-استمر الطفل يلهو مع النعاج لفترة ،وفجأة أمسك بيدي وقادني حتى أهرامات مصر.

عدل الشاب عن الكلام لحظة، ليرى إن كانت العجوز تعرف ما تكون أهرامات مصر، لكنها بقيت صامته، ثم تابع:

-عندئذٍ، أمام أهرامات مصر، (لفظ هذه الكلمة بمنتهى الدقة، لتستطيع العجوز فهمها جيداً)، كان الطفل يقول لي:

((إذا جئت إلي هنا، فستجد كنزاً مخبأً)).

وفي اللحظة التي كان يكاد أن يُريني فيها المكان المحدد كنت استيقظ. هكذا، في المرتين.

مكثت العجوز صامتة للحظات، ثم عادت وأمسكت بيدي الشاب

اللتين تفحصتهما بانتباه.

- لن تدفع الآن أي شيء، لكنني أريد عُشر الكنز إن وجدته.

أخذ الشاب يضحك، إنها ضحكة انشراح ورضا، فهكذا سيدخر القليل من المال الذي يملكه بفضل حلم صار عبارة عن كنز مخبأ ! لا بد أن تكون المرآة الطيبة العجوز غجرية، فالغجر أغبياء.

- حسنٌ، كيف تفسرين هذا الحلم ؟

- أولاً، يجب أن تقسم بالله أنك ستعطينني العُشر من كنزك مقابل ما سأقوله لك.

أقسم الراعي، وطلبت منه العجوز أن يكرر القسم، وعيناه مثبتتان على صورة السيد المسيح.

قالت العجوز:

- إنه حلم باللغة الكونية، حلم أستطيع تأويله، لكنه تأويل صعب جداً، يبدو لي أني استحق حصتي مما ستجد، فأنصت إلي جيداً:

عليك أن تذهب حتى أهرامات مصر، التي لم أسمع عنها مطلقاً، لكن إن كان من أراك إياها طفل، فهذا يعني أنها موجودة فعلاً، هناك ستجد كنزاً سيجعل منكَ رجلاً غنياً.

ذُهل الشاب للوهلة الأولى، ثم غضب، فلم يكن بحاجة للمجيء لرؤية هذه المرآة من أجل شيء تافه.

لكنه تذكر في نهاية الأمر أنه لم يدفع شيئاً.فقال لها :

-لم تك لدي حاجة لإضاعة وقتي مادام الأمر هكذا.

-أنت ترى، لقد قلت لك أن حلمك صعب التفسير، الأشياء البسيطة هي الأشياء الأكثر غرابه، والعلماء وحدهم من يستطيعون إدراكها، وبما أنني لست واحدة منهم، فإنه يتوجب عليّ معرفة فنون أخرى، كقراءة الكف مثلاً.

- وماذا عليّ أن أفعل من أجل الذهاب إلى مصر ؟

- أنا لا أقوم إلا بتفسير الأحلام، وليس بإمكاني تحويلها إلى حقيقة، ولهذا السبب عليّ أن أعيش مما تعطيني إياه بناتي.

- وإن لم أصل إلى مصر ؟

- حسناً، عندها لن أحصل منك على شيء ولن تكون هذه هي المرة الأولى.

ولم تضف العجوز شيئاً، بل طلبت من الشاب الانصراف لأنه أضاع الكثير من وقتها.

انصرف الراعي خائباً وعازماً على ألا يعتقد بالأحلام بعد الآن، ثم تذكر أن عليه القيام بأشياء أخرى، فذهب للبحث عن شيء يأكله، ولمبادلة كتابه مقابل آخر أكبر حجماً، وجلس على مقعد في الساحة، ليتذوق الخمر الجديدة التي ابتاعها.

كانت أغنامه عند مدخل المدينة، في حظيرة أحد الأصدقاء الجدد، فقد تعرف على الكثير من الناس في هذه الأنحاء، وهذا ما جعله يحب السفر لأيام متتالية، لأن السفر يساعدنا، باستمرار، على اكتساب أصدقاء جدد، دون أن نكون مضطرين إلى البقاء معهم يوما بعد يوم.

عندما نشاهد الأشخاص أنفسهم دائماً مثلما كانت الحال في المدرسة الإكليريكية، فسوف يؤدى ذلك إلى اعتبارهم جزءاً من حياتنا وإذا بهم يحاولون تغييرها، وفى نهاية المطاف، فإننا لم نكن مثلما يتمنون أن يرونا، يستاءون، لأن الناس جميعهم، يعتقدون بأنهم يعرفون، بالضبط، كيف ينبغي لنا أن تكون حياتنا.

ولكن لا أحد يعرف إطلاقاً، كيف ينبغي له أن يعيش حياته، فجميعهم مثل المرآة العجوز لا تستطيع أن تحول الأحلام إلى واقع .

قرر الانتظار حتى حلول الظلام، قبل أن يذهب إلى الريف مع نعاجه، فبعد ثلاثة أيام سيلتقي ثانيةً بابنة التاجر.

بدأ بقراءة الكتاب الذي كان قد حصل عليه من كاهن (طريفة).

كان كتاباً ضخماً، ومنذ الصفحة الأولى طالعته جنازة، كما كانت أسماء الشخصيات معقدة للغاية. ثم حدث نفسه، بأنه لو قُدِرَ له يوماً أن يؤلف كتاباً، فسوف يورد الشخصيات واحدة تلو الأخرى، كي يجنب قرائه مشقة حفظ أسمائها دفعة واحد عن ظهر قلب.

وفى حين بدأ يركز تفكيره على القراءة، (لاسيما وأن قصة الدفن التي في الكتاب تجرى في الثلج مما يعطيه إحساساً بالانتعاش تحت هذه الشمس الحارقة)، جلس رجل عجوز إلى جانبه، وراح يتحدث إليه.

قال الشيخ، وهو يشير إلى العابرين في الساحة:

- ماذا يفعل هؤلاء الناس ؟

أجاب الراعي بلهجة جافة:

- إنهم يعملون. وتظاهر بالقراءة.

في الواقع، كان يحلم بالذهاب لجز صوف نعاجه أمام ابنة التاجر، كي تلمس بنفسها قدرته على القيام بالكثير من الأمور الهامة، لقد تخيّل هذا المشهد عشرات المرّات. وكيف أن الفتاه تبدو مندهشة عندما يشرح لها عن الغنم وكيف يجز صوفها من الخلف إلى الأمام،لقد بذل ما بوسعه لتذكر بعض القصص الجيدة وروايتها لها أثناء عملية الجز، وكانت في الغالب قصصاً قرأها في الكتب، وهو يرويها، كما لو أنه عاشها بنفسه،

ولن تعرف مطلقاً الفرق طالما أنها تجهل قراءة الكتب.

أصرّ العجوز على الكلام حينذاك، وأخبره أنه متعب وظمآن، وطلب أن يشرب، فقدم له الشاب زجاجته علّه يذهب ويتركه لحاله.

لكن العجوز كان يريد الثرثرة بإلحاح، فسأل الراعي عن الكتاب الذي يقرأه.

فكر الشاب في أن يكون فظّاً ويغير مقعده، لكنه تذكر أن أباه قد علّمه أن يحترم المسنين، عندها، ناول الرجل العجوز الكتاب لسببين: أولاهما، لأنه غير قادر على لفظ عنوان الكتاب، وثانيهما، كي يغير العجوز مقعده إن كان يجهل فعلاً القراءة حتى لا يشعر بالذل.

تنحنح العجوز وهو يقلب الكتاب كما لو كان شيئاً غريباً.

- إنه كتابٌ مهم ولكنه ممل جداً.

تفاجأ الراعي أشد المفاجأة عندما وجد أن العجوز يجيد القراءة. وأنه قد قرأ هذا الكتاب من قبل. وأنه كتاب ممل فعلاً كما أكد العجوز، لا بأس، فالوقت لا يزال مناسباً كي يستبدله بآخر.

تابع العجوز:

- إنه كتاب يتحدث عن الشيء نفسه الذي تحدثت عنه الكتب كلها تقريباً، عن عجز الناس في اختيار مصائرهم، وأخيراً يجعلنا ندرك أكبر خدعة في العالم.

سأل الفتى مندهشاً:

- وما هي أكبر خدعة في العالم ؟!

- في إحدى لحظات وجودنا، نفقد السيطرة على حياتنا التي ستجد نفسها محكومة بالقدر، وهنا تكمن خديعة العالم الكبرى.

قال الشاب:

- بالنسبة لي، لم تجرِ الأمور بهذه الطريقة، فقد كانوا يريدون أن يجعلوا مني كاهناً لكنني قررت أن أكون راعياً.

- هكذا أفضل لك، لأنك تحب الترحال.

قال سانتياغو لنفسه:

((لقد حدس أفكاري)).

بينما كان العجوز يتصفح الكتاب، دون أن يظهر أية نية لردّه.

لاحظ الفتي أن العجوز يرتدي زيّاً غريباً، فقد كان يبدوا أنه عربي الهيئة، وهذا شيء مألوف في تلك المنطقة، فإفريقيا على بضع ساعات من (طريفة)، ويكفي اجتياز المضيق الصغير بواسطة القارب للوصول إليها. وغالباً ما يأتي العرب للتسوق من المدينة، فالناس يشاهدونهم وهم يصلون عدة مرات في اليوم بطريقة تدعو للفضول.

سأله الفتى :

- من أين أنت ؟

- من أماكن كثيرة.

- لا يمكن لأحد أن يكون من أماكن عدة، فأنا راعٍ، ومن الممكن أن أتواجد في أماكن مختلفة، لكنني أنتمي لمكانٍ واحد، مدينة قريبة من قصر قديم جداً، فهناك وُلدت.

- لنقل إذن إنني ولدت في (سالم).

لم يكن الراعي يعرف أين تقع (سالم)، لكنه لم يسأل، كي لا يشعر بأنه سخيف نتيجة جهله.

انشغل بمراقبة الساحة للحظة، فالناس يذهبون ويجيئون، ويبدون منشغلين للغاية.

سأل الشاب:

- كيف هي (سالم)؟ باحثاً عن أية علامة تدله عليها.

- كما هي دائماً من الأزل.

لم يكن في هذا أية علاقة تدل عليها، لكن على الأقل كان يعلم أن (سالم) ليست في الأندلس، و إلا لكان عرفها.

- وماذا تفعل أنت في (سالم)؟

- ما أفعله في (سالم)؟!

انفجر العجوز ضاحكاً للمرة الأولى، قائلاً:

- أنا ملك (سالم)، أي سؤالٍ هذا...!

قال الفتى في نفسه:

- الناس يقولون الكثير من الكلمات الغريبة، ومن الأفضل أن يعيش المرء مع النعاج الخرساء، ويكتفي بالبحث عن الماء والغذاء، أو مع الكتب التي تحكي قصصاً لا تُصدّق، أما عندما يتكلم المرء مع البشر فإنهم يقولون بعض الأمور التي تجعلنا نجهل كيف نتابع الحديث.

قال العجوز:

- أنا أُدعَى ((ملكي صادق))، وأنت كم تملك من الغنم؟

- أمتلك ما يكفيني.

كان العجوز يريد أن يعرف المزيد عن حياته.

- لدينا مشكلة إذن، فأنا لا أستطيع أن أساعدك، مادمت تفكر بامتلاك ما يلزمك من الغنم.

بدأ الشاب يعاني من الضيق، فهو لم يطلب منه أية مساعدة. فالشيخ العجوز هو الذي طلب خمراً، وأراد أن يثرثر.

- أعد إلي الكتاب، يجب أن أذهب للبحث عن أغنامي ومتابعة طريقي.

- أعطني منها العَشر، وسأعلّمك كيف تصل إلى كنزك المخبأ.

تذكر الفتى حلمه، وفجأة صار كل شيء واضحاً له.

فالمرأة العجوز لم تجعله يدفع شيئاً، لكن هذا الشيخ، سينجح في الحصول على مبلغ أكبر مقابل معلومة لم تكن تتعلّق بأي واقع، لابد أنه غجري أيضاً، ويمكن أن يكون زوجها.

في تلك الأثناء، ودون أن يقول أية كلمة، انحنى العجوز، والتقط غصناً من الأرض، وشرع يكتب شيئاً على رمل الساحة، وفي اللحظة التي انحنى فيها، لمع شيء ما على صدره، كان الضوء باهراً لدرجة جعلت الشاب شبه أعمى.

لكن وبحركة سريعة ومدهشة لرجل في مثل سنه، سارع العجوز لشد معطفه على صدره.

زال انبهار عيني الفتى، فاستطاع أن يرى بوضوح ما كان الرجل يكتبه، قرأ اسم أبيه، واسم أمه على رمال الساحة الرئيسية للمدينة الصغيرة، ألعاب طفولته، ليالي المدرسة الإكليريكية الباردة، ثم قرأ سيرة حياته حتى هذه اللحظة، قرأ أشياء لم يكن قد رواها لأحد قط، كتلك المرة التي سرق فيها سلاح أبيه وذهب لاصطياد الوعول الجبلية، أو كتجربته الجنسية الأولى والوحيدة.

قال العجوز:

- أنا ملك (سالم).

تساءل الفتى في ذهول وحيرة، لماذا يثرثر ملك مثلك مع راعٍ مثلي؟

- توجد عدة أسباب، لكن لنقل أن أهمّها هو أنك كنت قادراً على إنجاز أسطورتك الشخصية.

لم يفهم الشاب ما تعنيه عبارة الأسطورة الشخصية .

- هي ما كنت دائماً تتمنى أن تفعل، فكل واحد منا يعرف ما هي أسطورته الشخصية وهو في ريعان شبابه، في هذه الفترة من الحياة، يكون كل شيء واضحاً، كل شيء ممكناً، ولا يخاف المرء من أن يحلم أو يتمنى ما يرغب أن يفعله في حياته. بيد أن قوة خفية، تحاول مع مرور الوقت أن تثبت أن من المستحيل تحقيق أسطورتنا الشخصية.

لم يكن لقول العجوز أي معنى بالنسبة للراعي، لكنه كان يريد معرفة ماهية هذه القوى الخفية التي ستُذهل ابنة التاجر لدى سماعها!

- إنها قوى قد تبدو سيئة، ولكنها في الواقع هي تلك التي تُعلّمك كيف تحقق أسطورتك الشخصية، إنها هي التي تُعِد عقلك وإرادتك، لأن هناك حقيقة كبرى في هذا العالم: ((فأياً من تكون، وأيّ شيءٍ تفعل، فإنك عندما تريد شيئاً بالفعل، فهذا يعني أن هذه الرغبة قد ولدت في روح الكون، وأنها رسالتك على الأرض)).

- حتى لو كانت الرغبة فقط هي رغبة في الترحال ؟ أو في الزواج

من ابنة تاجر أقمشة؟

- أو البحث عن الكنز. إن روح الكون تتغذى من سعادة الناس أو من شقائهم، من الرغبة، من الغيرة، وإنجاز الأسطورة الشخصية هو الالتزام الأول والأوحد للناس، وكل شيء ليس إلا شيئاً واحداً.

((عندما تريد شيئاً ما، فإن الكون كله يطاوعك لتحقيق رغبتك)).

احتفظا بالصمت للحظة، راقبا فيها الساحة والمارّة، وكان العجوز هو المبادر في إعادة فتح الحديث:

- لماذا ترعى الغنم؟

- لأنني أحب الترحال.

أشار العجوز إلى بائع الفشار في إحدى زوايا الساحة، وقال:

- هذا الرجل أيضاً كان دائماً يريد الترحال عندما كان طفلاً، لكنّه فضّل شراء عربة صغيرة ليبيع الفشار ويجمع المال طيلة سنين عديدة، وعندما يصبح عجوزاً سيسافر ليمضي شهراً في إفريقيا، إنه لم يدرك أبداً أن الإنسان يمتلك القدرة لينفذ ما يحلم به.

فكّر الشاب بصوتٍ عالٍ:

((كان عليه أن يكون راعياً)).

قال العجوز:

- لقد فكّر في ذلك، ولكن باعة الفشار ذوو شخصيات أكبر من تلك التي عليها الرعاة، فباعة الفشار لديهم بيوت تؤويهم، بينما الرعاة ينامون تحت النجوم، والناس يفضّلون تزويج بناتهم من باعة الفشار على تزويجهم من الرعاة.

شعر الراعي بغصّة في الصميم، وهو يفكّر بابنة التاجر، ففي المدينة حيث تعيش يوجد بالتأكيد بائع فشار.

أردف العجوز:

- وأخيراً، فإن ما يفكّر به الناس عادة عن باعة الفشار وعن الرعاة يصبح لديهم أهم من الأسطورة الشخصية. تصفّح العجوز الكتاب وتسلّى بقراءة صفحة منه.

انتظر الراعي قليلاً، ثم قاطعه بنفس الطريقة التي قوطع هو بها:

- لماذا قلت لي هذه الأشياء؟

- لأنك تحاول أن تعيش أسطورتك الشخصية، ولأنك على وشك العدول عنها.

- وأنت تظهر دائماً في هذه اللحظات؟

- ليس بهذا الشكل دائماً، لكنني لا أتخلّى عنه أبداً... فتارة أظهر على شكل فكرة جديدة، أو كطريقة للتخلص من ورطة، وتارة أخرى أظهر في لحظة روحانية، أجعل فيها الأشياء سهلة المنال، وهكذا ... ولكن

أغلب الناس لا يلاحظون شيئاً.

روى أنه في الأسبوع الماضي، كان مُجبراً على الظهور لأحد المنقبين على شكل حجر، فقد كان هذا الرجل قد تخلّى عن كل شيء، ورحل سعياً للحصول على الزمرد.

خمس سنوات عمل خلالها بتكسير الأحجار على طول أحد الأنهار، كان قد كسر خلالها تسعمائة وتسعاً وتسعين ألفاً وتسعمائة وتسعاً وتسعين حجراً، محالاً أن يجد زمردة، في تلك الأثناء فكّر بالتراجع، ولم يكن ينقصه عندئذٍ إلا حجر واحد، ليكتشف زمردته، وبما أنه كان رجلاً دأب في السعي خلف أسطورته الشخصية، فقد قرر العجوز التدخل، فتحول إلى حجر تدحرجت عند أقدامه، وتحت وطأة غضبه وإحساسه بفقدان خمس سنوات ضاعت من عمره، قذف بذلك الحجر بعيداً، رماه بقوة كبيرة، جعلته يرتطم بحجر أخر، فتفتت، ليكشف عن أجمل زمردة في العالم.

قال العجوز وفي عينيه شيء من المرارة:

- إن الناس يتعلّمون مبكراً مبرر حياتهم، وربما لهذا السبب نفسه أيضاً، يتخلّون عاجلاً عن المتابعة، لكن هكذا هي الدنيا.

تذكر الشاب حينئذٍ أن نقطة البداية بالنسبة للمحادثة التي دارت بينهما كانت الكنز المخبأ.

قال العجوز:

- لقد نُبشت الكنوز بفعل السيل الجاري، ودُفنت نتيجة ارتفاع مياه السيل نفسها، وان كنت تريد معرفة المزيد عن كنزك، فعليك أن تتنازل عن عُشر قطيعك من الأغنام.

-أفلا يمكن لعُشر الكنز أن يفي بالأمر؟

بدا الشيخ ساخطاً:

- يا بني، إذا وعدت بشيء لا تملكه بعد، فإنك ستفقد الرغبة في الحصول عليه.

فأخبره الراعي بأنه كان قد وعد الغجرية بعُشر الكنز.

تأوه العجوز وصرخ:

- الغجر محتالون، ولكن، من الجيد أن تتعلم أن لكل شيء في الحياة ثمناً، وهذه هي الفكرة التي حاول محاربو الضوء تعليمها.

ثم أعاد الكتاب إلى الشاب قائلاً:

- غداً، وفي مثل هذه الساعة تصحب لي عُشر قطيعك، وسوف أرشدك كيف تجد كنزك بنجاح، هيّا عمت مساءً.

واختفى عبر إحدى زوايا الساحة.

حاول الشاب الرجوع إلى قراءته، لكنه لم يتمكّن من التركيز، فقد كان مضطرباً ومتوتراً، لأنه أدرك أن العجوز يقول الحقيقة، ذهب للبحث عن البائع المتجول، واشترى منه كيساً من الفشار، متسائلاً في قراره نفسه:

((هل علي أن أخبره بما قاله العجوز؟)) لا، من الأفضل أحياناً، أن نترك الأشياء كما هي عليه.

هكذا فكّر دون أن يقول شيئاً، فلو تكلم لأمضى- بائع الفشار ثلاثة أيام بالتفكير ليقرر إن كان سيتخلّى عن كل شيء، لكنه قد اعتاد العربة الصغيرة.

أخذ يهيم في المدينة، ونزل حتى الميناء، حيث يوجد مبنى كبير ذو نوافذ خاصة، كان الناس يأتون لشراء تذاكر السفر منها إلي مصر... إنها توجد في إفريقيا.

سأله موظف الحجز: ماذا تريد؟

أجاب وهو يبتعد: ربما غداً.

بثمن نعجة واحدة يستطيع العبور إلى الضفة الأخرى من المضيق.

أرعبته هذه الفكرة.

وحين كان الفتى يبتعد، قال موظف شباك التذاكر لزميله:

((إنه حالم آخر لا يملك ثمن تذكرة السفر)).

عندما كان أمام شباك التذاكر، فكر بنعاجه، إنه يخاف من العودة إليها. لقد تعلّم خلال هذين السنتين كل شئ عن تربية الغنم، وهو يتقن جز الصوف، والعناية بالنعاج الحوامل، وحماية قطيعه من الذئاب، ويعرف كل حقول الأندلس، ويعرف كم تساوى نعاجه.

قرر العودة إلى حظيرة صديقه عبر أطول الطرق، كان في المدينة قصر أيضاً، أراد تسلّق المنحدر الحجري والذهاب للجلوس على حائط السوق ليستطيع رؤية أفريقيا، فأحدهم كان قد أخبره أن العرب الذين احتلوا أسبانيا كلها تقريباً ولزمن طويل، قد جاؤوا من هناك، لكنه يكره العرب لأنهم جاؤوا بالغجر.

ومن الأعلى، يستطيع أن يرى أيضاً الجزء الأكبر من المدينة والساحة التي تحدّث فيها مع العجوز.

قال الفتى في نفسه:

((لعن الله الساعة التي التقيت فيها بهذا العجوز)).

فهو قد ذهب بكل بساطة للبحث عن امرأة قادرة على تفسير الأحلام، فلا تلك المرأة، ولا ذاك العجوز، اهتما بكونه راعٍ، فقد كانا شخصين منعزلين لا يعتقدان بشيء في الحياة، ولا يفهمان أن الرعاة ينتهون إلى الارتباط بأغنامهم، فالراعي يعرف بدقة كل واحدة منها، ويعرف إن كانت بينها واحدة عرجاء، وأياً منها ستضع بعد شهرين، إنه

يعرف الكسولات منهن، ويعرف متى يكون جزّها وذبحها. وإن قرر الرحيل يوماً، فإنها ستتألم كثيراً.

أخذت الريح الشرقية تعصف، فمع هذه الريح جاء قوم من العرب، وقبل أن يعرف (طريفه)، لم يكن يتخيل أن إفريقيا كانت قريبة جداً، الأمر الذي يشكّل خطراً كبيراً، فالعرب يستطيعون غزو البلاد من جديد.

ازداد عصف الريح بشده، وقال في نفسه:

((أنا حائر بين أغنامي وبين الكنز)).

يجب أن يقرر، أن يختار بين شيء تعود عليه وشيء يود بشغف الحصول عليه، ثم هناك ابنة التاجر، ولكنها ليست بأهمية النعاج، لأنها غير مرتبطة به، وهو على يقين بأن الفتاة إذا لم تراه بعد يومين فلن تهتم كثيراً لأمره، لأنها ترى الأيام متشابهة، وإذا تشابهت الأيام، هكذا، فذلك يعنى أن الناس توقفوا عن إدراك الأشياء الجميلة في حياتهم، ما دامت الشمس تعبر السماء.

قال فى نفسه:

((لقد فارقت أبي وأمي، وقصر المدينة التي وُلدت فيها. لقد تعودنا على ذلك، والأغنام سوف تعتاد على غيابي)).

من هناك، في الأعلى، راقب الساحة، حيث كان البائع المتجول يتابع

بيع الفشار، وجاء زوجان شابان ليجلسا على المقعد الذي شهد حواره مع العجوز، ثم تبادلا قبلة طويلة.

همس في نفسه: «بائع الفشار ...» دون أن يتم الجملة، لأن الرياح أخذت تعصف بشكل أقوى، وشعر بها تلطم وجهه، إنها جلبت العرب بلا شك، لكنها كانت تأتي أيضاً برائحة الصحراء، وبالنساء المحجبات، وتحمل عرق وأحلام أولئك الذين رحلوا ذات يوم بحثاً عن المجهول، أو عن الذهب، والمغامرات، والأهرامات.

أخذ الشاب يغبط الريح على حريتها، وأدرك أن لاشيء يمنعه أن يكون شبيهاً بها، فالأغنام، وابنة التاجر، وحقول الأندلس ليسوا سوى مراحل من أسطورته الشخصية.

عند ظهيرة اليوم التالي، التقى الراعي الشاب بالعجوز، و قد أحضر معه النعاج الستة، وقال له:

- إنني مندهش، فصديقي اشتري مني القطيع على الفور، فطيلة حياته كان يحلم بأن يكون راعياً، إذن هذا فأل خير.

قال العجوز:

- الأمور تسير دائماً هكذا، ونحن نسمي هذا: «المبدأ المناسب»، فأنت عندما تلعب للمرة الأولى فإنك ستربح حتماً، إنه حظ المبتدئ.

- ولم ذلك؟

- لأن الحياة تريدك أن تعيش أسطورتك الشخصية.

ثم راح يتفحّص النعاج الست، وقد لاحظ إن إحداها عرجاء، لكن الفتى وضّح له بأن هذا ليس له أهمية، لأنها كانت النعجة الأكثر ذكاءً والأوفر صوفاً بينهم، ثم سأله:

- أين يوجد الكنز؟

- الكنز موجود في مصر قرب الأهرامات.

اعترته رجفة، فالغجرية العجوز كانت قد قالت له الشيء نفسه، لكنها لم تأخذ أجرها.

- كي تصل إلى كنزك عليك أن تنتبه إلى الإشارات والعلامات،

فقد كتب الله قدرنا على جبيننا، واختار لكل منا الطريق التي يجب عليه إتباعها، وليس عليك إلا أن تقرأ ما كُتب لك.

وقبل أن يتمكن الشاب من أن يقول أي شيء، أخذت فراشة تحوم بينه وبين الرجل العجوز، فتذكر جده، الذي أخبره عندما كان طفلاً، إن فراش الليل علامة حظ.

قال العجوز القادر على قراءة أفكاره:

- هذا صحيح تماماً، كما علّمك جدك، تلك هي الإشارات.

ثم فتح المعطف الذي يلتف به، فتأثر الفتى بما رآه عندئذٍ، وتذكر البريق الذي بهر عينيه عشيّة البارحة، فقد كان العجوز يتقلّد قلادة من الذهب مرصّعة بالأحجار الكريمة.

إنه ملك بالفعل، وكان لزاماً عليه أن يتنكّر بهذا الزى ليتجنب اللصوص.

قال الشيخ وهو ينتزع درة بيضاء وأخرى سوداء، كانتا مثبتتين في وسط قلادته:

- خذهما، إنهما تدعيان ((أوريم و توميم)) .

السوداء تعني نعم، والبيضاء تعني لا. فعندما تعجز عن فهم الإشارات، فإنهما سيساعدانك، ولكن، ليكن سؤالك الذي تطرحه موضوعياً دائماً، حاول باستمرار أن تتخذ قرارك بنفسك، فالكنز

موجود قرب الأهرامات وهذا تعرفه مسبقاً، وعليكَ أن تدفع مقابل ذلك ست نعجات ، لأنني من ساعدك على اتخاذ القرار.

وضع الشاب الحجرين في جعبته، وسيأخذ من الآن فصاعداً قراراته بنفسه.

- لا تنسَ أن الكل ليس إلا شيئاً واحدً، لا تنسَ لغة الإشارات، ولا تنسَ على الخصوص، أن تمضي حتى آخر أسطورتك الشخصية. وقبل أن أودعك أحب أن أروي لك حكاية صغيرة.

« أرسل أحد التجار ابنه، ليكتشف سر السعادة عند أكثر الرجال حكمة، فسار الولد أربعين يوماً في الصحراء، ووصل أخيرا إلى قصر جميل يقع على قمة جبل، حيث كان يعيش الحكيم الذي يبحث عنه.

فبدل أن يلتقي رجلاً قديساً، فإنه دخل قاعة تعج بنشاط كثيف: تجار يدخلون ويخرجون، وأناس يثرثرون، وفي إحدى الزوايا فرقة موسيقية صغيرة تعزف ألحاناً هادئة، وكان هناك مائدة عامرة بما لذ وطاب بمأكولات من أطيب وأشهى ما تنتج تلك البقعة من العالم.

هذا هو الحكيم الذي يتحدث مع هذا وذاك، وكان على الشاب أن ينتظر طيلة ساعتين حتى يأتي دوره.

أصغى الحكيم إلى الشاب الذي شرح له سبب زيارته، لكن الحكيم أجاب بأنه لا يملك الوقت لكي يكشف له سر السعادة، وطلب منه

القيام بجولة في القصر ثم العودة لرؤيته بعد ساعتين.

ثم أضاف الحكيم وهو يعطي إلى الشاب ملعقة كان قد صب فيها قطرتين من الزيت:

- أريد منك أن تمسك الملعقة بيدك طوال جولتك، واحرص على ألا ينسكب الزيت منها.

أخذ الشاب يهبط ويصعد سلالم القصر، مثبتاً عينيه دائماً على الملعقة، وبعد ساعتين عاد إلى الحكيم.

وسأله الحكيم: هل رأيت السجاد العجمي الموجود في صالة الطعام؟ هل رأيت الحديقة التي استغرق تنسيقها عشر سنوات على يد امهر بستاني ؟ هل لاحظت أروقة مكتبتي الرائعة؟

كان على الشاب المرتبك أن يعترف بأنه لم يرَ شيئاً من كل هذا على الإطلاق، فشاغله الوحيد كان ألا تنسكب قطرتا الزيت التي عهد له الحكيم بهما.

فقال الحكيم: حسناً، عد وتعرّف على عجائب عالمي فلا يمكنك الوثوق برجل تجهل البيت الذي يسكنه.

اطمأن الشاب أكثر، وأخذ الملعقة، وعاد يتجول في القصر، منتبهاً، هذه المرة لكل روائع الفن التي كانت معلقة على الجدران، وعلى السقوف، رأي البساتين والجبال المحيطة بها وروعة الزهور، والإتقان

في وضع كل واحدة من تلك الروائع في مكانها المناسب، وعند عودته إلى الحكيم، روى له ما رآه بالتفصيل.

- ولكن أين قطرتي الزيت اللتين عهدت لك بهما؟

نظر الشاب إلى الملعقة ولاحظ أنه قد سكبهما.

عندئذ، قال حكيم الحكماء:

- تلك هي النصيحة الوحيدة التي سأقولها لك:

((إن سرّ السعادة، هو أن تشاهد عجائب الدنيا كلّها، ولكن دون أن تنسى إطلاقاً وجود قطرتي الزيت في الملعقة)).

مكث الراعي صامتاً، لقد فهم حكاية الملك العجوز، فبمقدور الراعي أن يحب السفر، لكن دون أن ينسى نعاجه أبداً.

نظر العجوز إلى الشاب، ورسم بكفيه حركات غريبة فوق رأس الفتى، ثم جمع نعاجه الستة، ومضى.

فوق أحد مرتفعات مدينة (طريفة) الصغيرة، كان هناك حصن قديم بناه العرب قديماً، ومن يجلس على أسواره يستطيع أن يرى من هناك بائع الفشار وجزءاً من إفريقيا.

(ملكي صادق) ملك (سالم) ، يجلس هذا المساء على أسوار الحصن، ويشعر بالريح الشرقية تلطم وجهه، والأغنام قريبة منه، متوقفة عن الحركة، كدرة وقلقة بسبب تبدل راعيها، والتغيرات التي حصلت لها، فإن كل ما كانت ترغب به، هو ما تأكله وتشربه.

كان يراقب القارب الصغير الذي يبتعد عن الميناء، إنه لن يلتقي بهذا الشاب من جديد، وذلك بعد أن دفع له عُشر نعاجه، لأن للآلهة أساطير خاصة، وليس لها أمنيات.

غير أن ملك (سالم)، ومن صميم قلبه قد تمنى للشاب النجاح. للأسف ! سينسى اسمي عما قريب.

كان عليّ أن أكرره مرات عديدة، حتى إذا ما تحدّث عني، استطاع أن يقول إنني(ملكي صادق) ملك (سالم).

ثم رفع عينيه إلى السماء، مشوشاً قليلاً مما كان يفكّر به لتوّه:

((أنا أدرك أن هذا ليس إلا أباطيل، كما قلت أنت نفسك يا إلهي، لكنه من حق ملك عجوز مثلي، أن يشعر أحياناً بالحاجة للشعور بالاعتزاز بالنفس)).

كان جالساً في مقهى يشبه سائر المقاهي التي استطاع رؤيتها، وهو يعبر أزقّة المدينة الضيقة.

كان هناك رجال، يدخّنون غليوناً ضخماً يتبادلونه من فم إلى فم.

وخلال عدة ساعات رأى رجالاً يتجولون يداً بيد، ونساء محجبات، ورجال دين يصعدون إلى قمم أبراج عالية، ويؤذنون، بينما كان سائر الناس يركعون، ويسجدون على الأرض.

كان يشعر بالآسي والوحدة بشكل مخيف، نظرة تشاؤم، زد على ذلك أنه في غمرة الترحال الطويل قد نسي شيئاً هاماً، يمكن له أن يبعده عن كنزه كثيراً من الوقت: إنهم في تلك البلاد يتكلّمون اللغة العربية.

اقترب صاحب المقهى، فأشار إليه بإصبعه أن يحضر له مشروباً كان قد رآه يقدّمه لطاولة أخرى، إنه الشاي المرّ، وتمنى لو كان خمراً.

لكن الوقت كان غير مناسب بالتأكيد لأن يشغل باله بمثل هذه الأمور، فأولى به ألا يفكّر الآن إلا بكنزه، والطريقة التي تمكّنه من الحصول عليه، فبيع أغنامه مكّنه من امتلاك مبلغ كبير نسبياً.

كان يعلم أن للمال تأثيره السحري، فيمنح الإنسان الشعور بالأمان وبأنه ليس وحيداً تماماً، ومن الممكن أن ينتهي الأمر خلال أيام، ويجد نفسه عند أقدام الأهرامات، فالرجل المسن، وبهذا الذهب اللامع على صدره، ليس بحاجة مطلقاً لأن يروي الأكاذيب ليحصل على ست

نعاج، فلقد حدّثه الملك العجوز عن علامات، وخلال عبور المضيق، فكّر بها.

نعم إنه يدرك تماماً عما يتحدّث، فطيلة الوقت الذي قضاه في أرياف الأندلس كان معتاداً أن يقرأ على الأرض وفي السماوات المؤشرات المتعلّقة بالدرب التي عليه أن يسلكها، وان طائراً معيّناً يدل على وجود أفعى بالقرب منه، وشجرة تدل على وجود الماء على بعد بضع كيلومترات من المكان، الأغنام علّمته كل هذه الأشياء.

((الإله هو الذي يهدي الأغنام، وهو الذي سيهدي الإنسان)).

ردد هذا في نفسه، فشعر بالاطمئنان، وبدا له الشاي أقل مرارة.

- من أنت؟

سمع سؤالاً باللغة الأسبانية.

شعر بارتياح كبير، فهو كان يحلم بالإشارات، وهاهو قد ظهر من ينبئ بها.

سأله الفتي:

- كيف لك أن تتكلم الأسبانية؟

كان القادم الجديد، شاباً يرتدي الزى العربي، أما لون بشرته يجعل المرء يحسبه من أبناء المدينة، وكانا يبدوان متقاربين في السن والطول.

- كل الناس هنا يتكلّمون الإسبانية تقريباً، فليس بيننا وبين إسبانيا إلا أقل من ساعتين.

- اجلس واطلب لنفسك شيئاً على حسابي، أما أنا فاطلب لي خمراً، فأنا أشمئز من هذا الشاي.

- لا يوجد خمر في بلادنا، فالدين يحرمه.

عندئذٍ أخبره الشاب بأنه يريد أن يذهب إلى الأهرامات، وقد أوشك أن يتحدث عن كنزه، لكنّه فضّل أخيراً ألا يقول شيئاً، فقد كان بمقدور العربي أن يقوده إلى هناك مقابل حصة من الكنز.

- أود لو تقودني إلى هناك إن كان هذا ممكناً، أستطيع أن أدفع لك ما تستحقه كدليل.

- هل لديك فكرة عن كيفية الذهاب إلى هناك؟

لاحظ عندئذٍ أن صاحب المقهى الذي كان على مقربة منه، يصغي بانتباه إلى المحادثة، أزعجه حضوره قليلاً، لكن لا بأس فقد حظي بدليل ولن يضيّع هذه الفرصة.

قال القادم الجديد:

- عليك اجتياز الصحراء الإفريقية الكبرى، وهذا سيتطلب منك المال، فقبل كل شيء أريد أن أعلم إن كنت تملك ما يكفي.

وجد الشاب في سؤال الفتى شيئاً من الفضول، لكنّه كان يثق

بالرجل العجوز، الذي قال له:

((عندما تريد شيئاً ما، فإن الكون كله يطاوعك لتحقيق رغبتك)).

سحب نقوده من جيبه، وأراها لرفيقه الجديد، فاقترب صاحب المقهى ونظر أيضاً، تبادل الرجلان بضع كلمات باللغة العربية، وبدا صاحب المقهى غاضباً.

قال الشاب:

- لنغادر هذا المكان، إنه لا يرغب في بقائنا هنا.

شعر الفتى بمزيد من الاطمئنان. نهض ليدفع الحساب، ولكن صاحب المقهى أمسك بذراعه، وأسمعه موعظة طويلة، دون توقف، كان الراعي قوى البنية، بيد انه غريب.

وإذا بالصديق الجديد يدفع صاحب المقهى جانباً، ويمضى بالفتى إلى الخارج، وقال له:

- غداً نستطيع الوصول إلى الأهرامات، لكن يجب أن نشتري جملين.

وانطلق الاثنان في أزقّة (طنجه) الضيّقة، وفي كل الزوايا والحنايا، كانت هناك بضائع معروضة على مباسط للبيع، ووصلا أخيراً إلى وسط ساحة كبيرة كان يشغلها سوق أسبوعي، آلاف من الأشخاص يتحادثون، يبيعون ويشترون، لم يرفع الشاب نظره عن صديقه الجديد،

فهو لم ينسَ أن ماله كلّه صار الآن بين يديه، كان يود لو يستطيع أن يطلب استرجاعه، لكنه شعر في قرارة نفسه، أن في هذا شيئاً من عدم اللباقة، فهو لا يعرف عادات هذه البلاد العربية التي يطأ أرضها الآن.

فقال في نفسه: تكفي مراقبته، فأنا أقوى منه.

فجأة، وفي وسط هذه الأكوام من البضائع، وقعت عيناه على أجمل سيف رآه في حياته، غمده من فضة، ومقبضه أسود، مرصّع بالأحجار الكريمة، فعاهد نفسه على أن يشتري هذا السيف عندما يعود من مصر.

قال لصاحبه:

- اسأل التاجر كم سعره؟

وقد لاحظ أنه استغرق ثانيتين من الغفلة فقط وهو يتأمل السيف، انقبض قلبه كما لو أن صدره تقلّص فجأة، خشي الإلتفات حوله، فهو يعلم جيّداً ما الذي ينتظره!!!

بقي مسمّر العينين في السيف، وأخيراً تسلّح بالشجاعة واستدار، كان كل شيء حوله، السوق، الناس الذين يروحون ويجيئون، يصرخون، يشترون السجاد، والبندق و أطباق النحاس، والرجال الذين يسيرون يداً بيد، والنساء المحجبات، والعطور الغريبة، لكن لا يوجد أثر لصديقه، ما من شيء على الإطلاق، لا ظل له.

حاول أن يقنع نفسه في بداية الأمر، أنه وصديقه قد ضلاّ بعضهما

وغابا عن أبصار بعضهما صدفةً، فقرر أن يبقى في مكانه على أمل أن يعود إليه صديقه قريباً.

وبعد وقت قصير صعد رجل إلى أحد تلك الأبراج المشهورة، وبدأ بالآذان، وكل الموجودين ركعوا على الأرض، وراحوا يصلون، ثم بعد ذلك، وكمستعمرة من النمل في غمرة العمل، حزموا بضائعهم وانصرفوا.

راقب الشاب الشمس فترة طويلة، إلى أن اختفت هي أيضاً خلف البيوت البيضاء المحيطة بالساحة، وتخيّل كيف أنه عندما أشرقت عليه ذات صباح كان ما يزال على أرض قارة أخرى.

كان راعياً، وكان لديه ستون نعجة، وكان على موعد مع الفتاة ، وفي الصباح أثناء تجواله في الأرياف، كان يعلم ما يمكن أن يتعرض إليه، والآن ومع الشمس التي تغيب في بلدٍ آخر، يجد نفسه غريباً على أرض غريبة لا يستطيع حتى أن يفهم اللغة التي يتكلموا بها.

لم يعد راعياً، ولم يعد يمتلك شيئاً، ولا حتى المال اللازم ليعود أدراجه ويستدرك كل شيء.

قال في نفسه:

((لقد حدث كل هذا مابين شروق وغروب الشمس نفسها، وأشفق على نفسه وهو يرى الأشياء تتغير في الحياة، في وقت وجيز، قبل أن يتوافر الوقت الكافي للتعود عليها)).

كـان يخجـل مـن الاستسـلام للبكـاء، لم يكـن قـد بكـى إطلاقـاً أمـام أغنامه، لكن ساحة السوق كانت خاوية، وهو بعيداً عن وطنه.

بكى وبكى، لأن الرب يكافئ الناس الذين يؤمنون بـأحلامهم بهـذه الطريقة.

((عندما كنـت مـع أغنـامي، كنـت سـعيداً أشـارك بسـعادتي كـل مـن يحيطون بي، وكان الناس يرونني قادماً، ويستقبلونني استقبالاً جيداً، أما الآن فأنا حزين وتعيس، ماذا سأفعل؟ يجب أن أكـون اشـد حـذرا، ولـن أثق بـأي إنسـان بعـد الآن. هنـاك شخصـاً خـانني، وسـأكره كـل هـؤلاء الـذين وجـدوا كنوزاً مخبـأة لأنني لم أجـد كنـزي، وسأسعى باستمرار لادخار المال الذي املكه، فأنا مازلت ضعيفاً لمواجهة العالم)).

فتح جعبته ليتفحّص ما كان لديه فيها، فربما بقـي شيء مـن الشـطيرة التي كان يأكلها على حافّـة القـارب، لكنـه لم يجد إلا الكتـاب الضـخم، والمعطف، والحجرين الكريمين اللتين أعطاهما له العجوز، وعنـد رؤيتـه لهما اعتمل في صدره شعور بالعزاء، فقد دفـع مقابلهـا سـت نعـاج، إنهـما حجران ثمينان انتزعتا مـن قـلادة ذهبيّـة، كـان بمقـدوره بيعهما وهكـذا يستطيع أن يحصل على تذكرة عودته.

قال فى نفسه وهو يستخرج الحجرين ليخبئهما في قعر جيبه:

- سأصبح من الآن أكثر خبثاً.

كان في الميناء، والشيء الوحيد الصادق الذي قاله ذلك اللص: الميناء

يعجّ دائماً باللصوص.

فهم الآن جهود صاحب المقهى اليائسة، فقد كان يحاول أن يقول له بألا يثق بذلك الرجل، أنا ككل الآخرين: أنظر إلى العالم كما أتمنى أن يكون، وليس كما تجري الأمور في الواقع.

بقي يتفحّص الحجرين الثمينين، داعبهما بلطف وتحسس حرارتهما ونعومتهما، إنهما كنزه الوحيد، ومجرّد لمسهما كفيل بأن يزرع في نفسه نوعاً من الشعور بالسكينة، فقد كانتا تذكّرانه بما قاله الملك العجوز:

((عندما تريد شيئاً ما، فإن الكون كله يطاوعك لتحقيق رغبتك))

كان يتمنّى لو يفهم كيف يمكن لهذا أن يكون صحيحاً.

الآن يجد نفسه هناك على ساحة سوق مقفرة، لا يملك درهماً في جيبه، دون أغنام يحرسها في الليل، أما الحجران فقد كانتا تشكّلان الدليل الذي يثبت أنه قد التقى ملكاً يعرف أسطورته الشخصية، ويدري بما فعله بسلاح أبيه، وبتجربته الجنسيّة الأولى.

الحجران يفيدان في التنبؤ وتدعيان ((أوريم و توميم))، أعادهما إلى مكانهما في الجعبة وقرر أن يقوم بالتجربة، فالعجوز قد قال له أن عليه طرح أسئلة واضحة، لأن الحجرين لا تفيدان السائل في شيء إن لم يكن يعرف ما يريد.

عندئذٍ سأل الشاب إن كانت بركة العجوز ترافقه دائماً؟

فسحب من جيبه واحد من الحجرين فكانت (نعم)، ثم سأل:

- هل سأجد كنزي؟

وضع يده في جيبه ليمسك بواحدة منهما، عندها انزلقتا كلتاهما من ثقب موجود في القماش، لم يكن قد لاحظ قط أن جعبته مثقوبة، انحنى ليلتقط ((أوريم و توميم)) ، ليعيداهما إلى الكيس، ولكن عند رؤيته لهما على الأرض، مرّت في ذاكرته جملة أخرى:

((ينبغي عليك أن تتبع الإشارات)).

هذا ما قاله الملك العجوز أيضاً.

صاح الفتى :

- إشـــاره !!!

وشرع الشاب بالضحك، ثم التقط الحجرين، وأعادهما إلى جعبته المثقوبة، التي لم يكن لديه أية رغبة في إصلاحها. تستطيع الحجران الهرب من هذا الثقب إن أرادتا، كان قد فهم أن هناك بعض الأشياء التي لا يجوز للمرء أن يطلبها كي لا يهرب من قدره المحتوم.

قال في نفسه:

((لقد وعدت أن أتخذ قراراتي الخاصة بنفسي، لكن الحجرين قد أخبرتاه بأن العجوز إلى جانبه، وهذا الجواب أعاد له الثقة بنفسه)).

نظر مليّاً من جديد إلى السوق المقفرة، ولم يعد يشعر باليأس الذي كان يعذّبه من قبل، ولم يعد العالم الذي يحيط به عالماً غريباً، بل صار عالماً جديداً، فبعد كل شيء، هذا ما كان يصبو إليه: «معرفة عوالم جديدة، فحتى لو لم يصل إلى الأهرامات، فقد ذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أي راعٍ آخر».

- آه! ليتهم يعلمون أنه بأقل من ساعتين من السفر في القارب يوجد الكثير من الأشياء المختلفة....

تبدّى العالم الجديد أمام ناظريه على شكل سوق أسبوعية مقفرة، في حين أنه قد رأى هذا المكان من قبل يغصّ بالحياة، وهو لن ينساه.

تذكّر السيف الذي دفع ثمناً غالياً من أجل تأمله للحظة، وفجأة شعر أن بإمكانه أن ينظر للعالم إما من خلال نظرة ضحية السارق البائسة، أو من خلال نظرة المغامر الذي يسعى وراء كنزه.

- إنني مغامر يسعى بحثاً عن كنز.

هكذا قال لنفسه قبل أن يغط منهكاً في نوم عميق.

أفاق وهو يحس بأن أحداً ما يهزّه من كتفه، كان قد نام وسط ساحة السوق الأسبوعي الذي بدأت تدب فيه الحركة. نظر حوله باحثاً عن أغنامه، لكنّه تنبه إلى أنه الآن في عالمٍ آخر، واستبدل الإحساس بالحزن الذي يكابده بإحساس السعادة، وأصبح بمقدوره الآن الانطلاق، وأن يكد للبحث وراء الطعام والشراب، وصار أكثر إصراراً في البحث عن الكنز، لم يكن لديه درهم في جيبه، لكنّه يملك الإيمان بالحياة، ومساء الأمس اختار أن يكون مغامراً مشابهاً لشخصيات اعتاد أن يقرأ عنها في الكتب.

أخذ يتنزّه على أرض الساحة، حيث كان التجار يقومون بنصب أكواخهم، فساعد رجلاً يبيع الحلوى على نصب كوخه، وكانت ترتسم على وجه هذا الرجل ابتسامة لا مثيل لها، كان جذلاً للغاية، يفيض حبوراً، ومنفتحاً على الحياة، ومستعداً للقاء يوم عمل جيّد.

ابتسامته تُذكّر نوعاً ما بالشيخ، ذلك الملك العجوز الغريب، الذي كان قد تعرّف عليه.

قال الشاب في نفسه: ((هذا لا يصنع الحلوى، لأنه يريد السفر، أو الزواج من ابنة تاجر، كلاّ، إنه يصنع الحلوى لأنه يحب هذه المهنة)).

ثم لاحظ أنه كان قادراً على فعل ما يفعله الشيخ، وهو معرفة إن كان المرء قريباً أو بعيداً عن أسطورته الشخصية.

عندما فرغا من إعداد الكوخ، قدّم له الرجل أول قطعة أعدّها من الحلوى، فأكلها بسرور ، ثم شكره وانطلق في طريقه، وبعد أن ابتعد قليلاً عنه رواده التفكير بأن الكوخ قد أعده شخصين اثنين، أحدهما يتكلّم العربية، والآخر يتكلم الأسبانية، ومع ذلك كانا متفاهمين.

حدّث نفسه قائلاً:

« توجد لغة فيما وراء الكلمات، لقد حَصُلت على هذه الخبرة من قِبَل الأغنام وهاأنذا أتوصّل إلى ذلك مع البشر».

إنه يتعلّم أشياء جديدة ومتنوعة كان قد اختبرها من قبل، ومع ذلك فهي جديدة، لأنها قد وجِدت مصادفة عبر دربه دون أن يكون قد حسب لها حساباً، هذا لأنه اعتاد على مثل هذه الأشياء.

«لو أستطيع أن أتعلم فك رموز هذه اللغة التي تتجاوز الكلمات لاستطعتُ فكّ رموز العالم».

قرر أن يجوب بكل هدوء شوارع (طنجه) الصغيرة، فبهذه الطريقة فقط سينجح بإدراك الإشارات، وهذا يتطلّب دون شك قدراً كبيراً من الصبر، لكن الصبر هو الفضيلة الأولى التي يتعلّمها الراعي.

ومرة أخرى فهم كيف يطبّق عملياً، في هذا العالم الغريب، الدروس نفسها التي تعلّمها من أغنامه.

«فكلّ شيء هو شيء واحد وفريد »، كما قال الملك العجوز.

رأى تاجر الأواني الزجاجية شروق الشمس، وقد انتابه نفس الشعور بالقلق الذي ينتابه كل صباح، فهو في المكان نفسه منذ قرابة ثلاثين عاماً، حيث يقع متجره في قمّة طريق منحدرة، ومن النادر أن يمر زبون واحد من هناك، وقد فات الأوان على التاجر كي يغيّر مهنته، فكل ما تعلّمه عبر حياته كلّها هو بيع وشراء الأواني الزجاجية.

فيما مضى. كان متجره معروفاً لدي كثير من الناس. تجار عرب، فرنسيون وإنكليز، وجنودٌ ألمان، وكلّهم لديهم المال الوفير، في حين أن بيع الزجاج في ذلك الوقت كان يشكّل مغامرة كبيرة، وقد تخيّل كيف سيصبح رجلاً غنياً، ويحظى بالنساء الجميلات عندما يشيخ.

ثم مضت تلك الحقبة رويداً رويداً، والمدينة على حالها، وازدهرت مدينة (سبته) أكثر من (طنجه) وأخذت التجارة منحنى آخر، ولم يبق بعد زمن قليل إلا بعض المحلاّت القليلة في المرتفع، ولن يأتي من يتسلّق طريقاً منحدرة من أجل هذه المتاجر التعيسة.

أما التاجر فلم يكن يملك الخيار، فقد أمضى. ثلاثين عاماً فى بيع الأواني الزجاجية، وصار الوقت متأخراً كي ينخرط باتجاه آخر.

طوال فترة الصباح، كان يراقب المارة القلائل في الطريق الصغيرة، وهذا ما يفعله منذ سنوات حتى صار يعرف عادات المارّة فرداً فرداً.

وقبل موعد الغداء بلحظات قليلة توقف شاب غريب أمام واجهة

المتجر، كان يرتدي كسائر الناس، لكن تاجر الأواني الزجاجية اكتشف ببصيرته الثاقبة أنه لا يملك المال.

وعلى الرغم من ذلك، فقد قرر أن يعود إلى متجره وينتظر بضع دقائق حتى ينصرف الشاب.

على باب المتجر، كانت قد علقت لافتة تشير إلى أن صاحبه يجيد التكلّم بعدة لغات، وقد لمح الشاب شخصاً يقف خلف طاولة السلع، فقال له:

- إنني أستطيع تنظيف هذه المزهريات، فلن يشتريها أحد وهي على تلك الحالة المزرية ، هذا إن أردت ذلك.

نظر التاجر دون أن ينبس ببنت شفة، فاستطرد الفتى:

- بالمقابل، فإنك سوف تعطيني شيئاً آكله، اتفقنا؟

بقي الرجل صامتاً، وفهم الشاب أن عليه أن يتّخذ قراراً.

كان معطفه في جعبته، ولم يكن بحاجة إليه في الصحراء، تناوله وأخذ ينظّف به الأواني الزجاجية، وبعد نصف ساعة كان قد نظّف ما يوجد في الواجهة بينما دخل زبونان واشتريا عدداً منها، وعندما فرغ من تنظيفها كلّها، طلب من صاحبها أن يعطيه شيئاً يسد به رمقه.

قال تاجر الأواني الزجاجية:

- هيّا بنا نتناول الغداء.

علّق لوحة على الباب، وذهبا إلى مقهى صغير أعلى المرتفع، وبينما هما جالسين على الطاولة الوحيدة هناك، قال بائع الأواني مبتسماً:

– لم يكن هناك أي داعٍ لتنظيف الأواني الزجاجية، فإن الشريعة الإسلامية تلزمنا إطعام الجائع أياً كان.

– لكن لماذا تركتني أقوم بهذا العمل؟

– لأن الأواني الزجاجية كانت متّسخة، وأنت مثلي، كلانا بحاجة لتطهير رأسه من الأفكار السيئة.

عندما فرغا من الطعام، التفت التاجر نحو الشاب:

–أريدك أن تعمل في متجري، فقد دخل اليوم زبونان بينما كنتَ تنظّف الأواني الزجاجية، إن في ذلك علامة حسنة.

قال الفتى في نفسه:

((يتكّلم الناس كثيراً عن الإشارات، لكنّهم على الأصح لا يعلمون عمّ يتكلّمون، مثلهم مثلي، أنا الذي لم أكن قد لاحظت أنه لسنوات طويلة كنت أتكلّم مع أغنامي بلغة دون كلمات)).

ألح تاجر الأواني الزجاجية.

– هل تريد أن تعمل لدي؟

– أستطيع أن أعمل طيلة الوقت المتبقي من اليوم، سأنظّف الأواني

الزجاجية كلّها حتى طلوع الفجر، وبالمقابل يلزمني بعض المال كي أكون غداً في مصر.

فجأة، أخذ التاجر يضحك، وقال:

- لو نظّفت الأواني الزجاجية طيلة عام بأكمله، أو كسبت عمولة جيّدة لقاء بيع أي قطعة منها، سيلزمك اقتراض المال الكثير كي تذهب حتى مصر، فآلاف الكيلومترات تفصل (طنجة) عن مصر.

عندها خيّم فاصل من الصمت، وفجأة بدت معه المدينة غافية، فما عاد يُلمح فيها أي نشاط، وانتهت محادثات التجار فيما بينهم، وآذان الرجال الذين كانوا يصعدون إلى المئذنة قد توقف، ولم يعد يرى تلك السيوف الجميلة ذات المقابض المرصّعة.

لا رجاء، لا مغامرة، لا ملوك كبار، لا أساطير شخصيّة، لا كنز، لا أهرامات بعد الآن، كان يشعر كما لو أن العالم بأسره قد صار أخرس، لأن روحه قد غُلِّفت بالصمت.

لم يبقَ هناك ألم، أو عذاب، أو إخفاق، بكل بساطة لم يكن يملك إلا نظرة جوفاء تعبر باب الحانة، ورغبة عارمة في الموت لدى رؤيته كل شيء ينتهي في هذه اللحظة وإلى الأبد.

نظر إليه التاجر محتاراً، فذلك السرور الذي لمحه على وجهه في ذاك الصباح قد اختفي فجأة، فقال له:

- سأعطيك مالاً لكي تعود إلى بلدك يا بني.

لبث الفتي هادئاً، ثم وقف، وأصلح ثيابه، والتقط جعبته، وقال:

- سأعمل عندك

وبعد فترة صمت ثانية، أضاف مختتماً حديثه:

- أحتاج المال لأشترى بعض النعاج.

القسم الثاني

مضى أكثر من شهر على عمل الشاب عند بائع الأواني الزجاجية، لكن هذا العمل لم يكن هو الذي يطمح إليه حقاً، فالتاجر لم يكن يكفّ عن التذمر طوال النهار، آمراً إيّاه من وراء طاولته بأن ينتبه على الدوام إلى الأواني المعروضة خشية أن ينكسر منها شيء.

ولكنه استمر، فعلى الرغم من أن التاجر كان متذمّراً، فهو على الأقل لم يكن ظالماً، فقد كان يتلقّى منه عمولة لا بأس بها لقاء كل قطعة تُباع، وقد استطاع حتى الآن ادخار بعض المال، وبعد أن قام بحساباته هذا الصباح، وجد أنه لو عمل طوال اليوم، وبنفس هذه الشروط سيلزمه عام كامل كي يستطيع شراء بعض الأغنام.

فقال للتاجر:

- إنني أرغب فى عرض الأواني الزجاجية خارج المتجر، نستطيع أن نضع رفاً في الخارج، إنه سيجذب المارّة من هناك في أسفل الجبل.

أجاب التاجر:

- لم يسبق لي أن فعلتُ شيئاً مماثلاً (رفّ)، ! إن الناس ستصطدم به في الممر، وتتحطم الأواني الزجاجية.

- عندما كنتُ أطوف بأغنامي في القرى، كان من الممكن أن يتعرّض بعضها للدغة أفعى، وتذهب ضحيّة لذلك، هذا الخطر يشكّل جزءاً من حياة الأغنام والرعاة.

راح التاجر يلبّي طلبات أحد الزبائن، لقد باع الآن ثلاث مزهريات من الكريستال، لقد نشط البيع أكثر من أي وقت مضى، وكأن العالم قد عاد إلى ما كان عليه عندما كانت الطريق المؤدّية إليهم واحدة من أهم الطرق التي تجذب الزبائن في (طنجه).

قال التاجر للفتى عندما انصرف الزبون:

-لقد أصبح المارّة يتزايدون أكثر فأكثر، وإن ما نكسبه الآن يمكن أن يؤمّن لي معيشة أفضل، ويمكن أن يسمح لك بشراء أغنامك في وقتٍ وجيز، ماذا نريد من الحياة أكثر من هذا؟

- لأنه يتوجب علينا أن نتبع الإشارات.

لكنّه ندم لأنه تكلّم هكذا، فالتاجر لم يكن قد حظي أبداً بفرصة لقاء ملك، فهذا هو ما أطلق عليه الملك العجوز (المبدأ المناسب)، أو (حظ المبتدئين)، لأن الحياة تريد للإنسان أن يحيا أسطورته الشخصية.

على كل حال، فهم التاجر ما يعنيه الفتى، فحضور الفتى إلي المتجر يمثل علامة في حد ذاته، وعلى مر الأيام وبازدياد المال الذي صار يكسبه بعد مجيئه لم يعد نادماً على استئجار هذا الشاب الأسباني، غير أن أجر هذا الأخير كان أكثر من العادي، وبما أنه كان يعتقد بأن البيع سيسر أيضاً نحو الأفضل، فإنه قد دفع للشاب ما يستحقه كعمولة.

لكن حدسه كان ينبئه أن الشاب سيعود عمّا قريب إلى أغنامه، سأله كي يغيّر الحديث بخصوص عرض البضائع:

- لماذا تريد الذهاب لرؤية الأهرامات؟

أجاب الشاب متحاشياً الكلام عن حلمه:

- لأني سمعت عنها كثيراً.

فالكنز صار الآن مسألة ذكرى مؤلمة باستمرار، وكان يحاول أن يمنع نفسه من التفكير به.

قال التاجر:

- إنني ما عرفت أحداً هنا أراد اجتياز الصحراء فقط كي يرى الأهرامات، فهي ليست إلا كومة من الحجارة، حتى أنك لتستطيع أنت أن تبني لنفسك هرماً في حديقتك.

قال الشاب وهو يمضي ليلبي طلب زبون آخر آتى لتوّه إلى المتجر:

- إنك لم تحلم إطلاقاً بالسفر.

وفي اليوم الثالث، عاد الشاب للحديث عن رف البضائع، فقال التاجر:

- أنا لا أحب التغيير كثيراً، فأنتَ وأنا لسنا مثل « حسان »، ذلك التاجر الغني الذي لن يتأثر أبداً في حال خسارته بصفقة، أما نحن الاثنين، فسيتوجب علينا أن نتحمّل تبعة أخطائنا.

- هذا صحيح .

سأل التاجر:

- لماذا تصرّ كثيراً على رفّ العرض هذا؟

- أريد العودة بسرعة إلى أغنامي، وعندما تهب رياحنا فعلينا أن نغتنمها، وأن نعمل ما بوسعنا كي يحالفنا ما يسمونه (المبدأ المناسب) أو (حظ المبتدئ).

بقي التاجر صامتاً للحظة ثم قال:

- لقد أرسل الله لنا النبي بالقرآن، الذي فرض علينا خمسة فروض فقط، علينا مراعاتها في حياتنا، الأكثر أهميّة منها هو ذا: وحدانية الإله، والفروض الأخرى هي: الصلاة، خمسة أوقات في اليوم، صيام رمضان، وواجب الزكاة لمساعدة الفقراء، صمت بينما كانت عيناه مغرورقتين بالدموع وهو يتحدّث عن النبي.

لقد كان التاجر رجلاً ورعاً للغاية، وحتى لو كان يبدو دائماً لحوحاً ونافذ الصبر، فإنه يجهد للعيش منسجماً مع الشريعة الإسلامية.

سأله الشاب:

- وما هو الفرض الخامس ؟

- منذ يومين سألتني إن لم أكن قد حلمتُ إطلاقاً بالسفر، فإن الفرض الخامس هو أن يقوم كل مسلم مؤمن بالسفر. فيتوجب علينا أن نقوم خلال عمرنا برحلة واحدة على الأقل إلى مدينة ((مكة المكرّمة)). فـ

((مكّة)) أيضاً هي مدينة تبعد عنا أكثر من الأهرامات.

وعندما كنت شاباً، فضّلت أن أستثمر القليل من المال الـذي كنـت أملكه في شق طريقي في هذه التجارة، على أمل أن أصبح غنيّـاً، وأملـك المال، لكنني لم أكن لأستطيع أن أعهد لأحـد بعنايـة الأواني الزجاجيـة، لأنها أشياء حساسة، حينذاك كنت أرى مجموعات مـن النـاس يمـرّون على متجري، وهم في طريقهم إلى(مكة) ، كان من بينهم حجـاج أثريـاء يرافقهم موكب من الخدم والجمال، لكن معظمهم كان أكثر فقراً مني.

كلّهم كانوا يذهبون ويعودون سعداء، وكانوا يضـعون عـلى أبـواب مساكنهم رموز قيامهم بالحج، وأحد أولئك الحجيج كان حذّاءً، وكـان يعيش من خلال إصلاح أحذية هذا وذاك، وقد أخبرني أنه مشـى عامـاً بكامله في الصحراء، ولكنّه كان يشعر بالتعب أكثر عندما كان يتوجّـب عليه المرور على منازل كثيرة في (طنجه) لشراء الجلد.

سأله الشاب:

- لماذا لا تذهب الآن إلى مكّة ؟

- لأن مكة تجعلني أتمسك بالحياة، وهي التي تمنحني القـوة لتحمّـل هذه الأيام الرتيبة، وهـذه المزهريـات المنضـدة عـلى الرفـوف، والغـداء والعشاء في هذا المطعم البائس، وأخشى أن أحقق حلمي، ثم أفقـد كـل رغبة بأن أبقى حيّاً.

أما أنت... فإنك تحلم بالأغنام، و بالأهرامـات، أنـت لسـت مـثلي

لأنك تريد تحقيق أحلامك، أما أنا فكل ما أريده هو أن أحلم بـ (مكة)، فلقد تخيّلت من قبل آلاف المرات، عبور الصحراء ووصولي إلى الساحة التي يوجد بها الحجر المقدّس، والدورات السبع التي عليّ أن أتمّها قبل أن أستطيع لمسه، وتخيّلت من سيكون بجانبي أو أمامي، والأقاويل والدعوات التي سنقولها ونتبادلها معاً. لكنني أخشى ألا يكون ذلك سوى خيبة كبيرة، ولهذا أفضّل أن أكتفي بالحلم.

وفي ذلك اليوم سمح التاجر للشاب بإنشاء رف لعرض البضائع، فليس بنفس الطريقة يعيش الناس كلّهم أحلامهم.

مضي شهران، وصار (رفّ) البضائع يجذب إلى المتجر عدداً كبيراً من الزبائن، مما جعل الشاب يحسب أنه سيستطيع خلال ستة أشهر العودة إلى أسبانيا وشراء ستين نعجة، ففي أقل من عام سيستطيع مضاعفة قطيعه، وأن يتاجر مع العرب لأنه تعلّم اللغة العربية.

منذ هذا الصباح المشهود على أرض ساحة السوق، لم يعد يستخدم أبداً ((أوريم و توميم))، لأن مصر أصبحت بالنسبة له حلماً بعيد المنال، حلماً يبعد عنه كما تبعد مكّة عن بائع الأواني الزجاجية، ولكنه صار مقتنعاً بعمله الآن، ولم يكف عن التفكير باليوم الذي سيصل فيه كمنتصر إلي (طريفة) .

((تذكّر دائماً أن تعرف ما تريد)).

هكذا قال الملك العجوز، والشاب كان يعرف ما يريد.

فمن الممكن أن يكون كنزه هو أن يأتي إلى هذه الأرض الغريبة، وأن يلتقي بسارق، وأن يضاعف أغنامه مرتين دون أن ينفق قرشاً واحداً.

كان فخوراً بنفسه، لأنه تعلّم أشياء هامّة كتجارة الأواني الزجاجيّة، لغة دون كلمات، وتفسير الإشارات.

في عصر هذا اليوم، رأي رجلاً في أعلى المرتفع يشكو لأنه لم يجد مكاناً مناسباً يشرب فيه شيئاً، بعد كل هذا العناء من تسلّق المنحدر.

كان الشاب يعرف لغة الإشارات فراح يحدث التاجر، قائلاً:

- علينا أن نقدّم الشاي للناس الذين يتسلّقون المنحدر.

فأجاب التاجر:

- ولكن، يوجد هنا الكثير من الأماكن لشرب الشاي.

- سيكون بإمكاننا تقديم الشاي إلى الزبائن في أقداح من الكريستال، وبهذه الطريقة سيُعجبون بالشاي، وسيبتاعون الأواني الزجاجية لأن أكثر ما يفتن الناس هو الجمال.

أخذ التاجر يستمع إلي الفتي دون أن يجيب، لكن في ذلك المساء بالذات، وبعد أن أدى صلواته، وأغلق متجره، جلس على الرصيف، ثم دعاه إلى تدخين النرجيلة، ثم سأله تاجر الزجاج العجوز:

- ما الذي تسعى وراءه؟

-إني بحاجة إلى تعويض أغنامي، ومن أجل هذا يلزمني المال.

وضع الرجل جمرات في النرجيلة، وأخذ نفَساً طويلاً، وقال:

- ثلاثون عاماً مرّت على إدارتي هذا المتجر، فإنا أعرف الزجاج الجيّد من الرديء، واعرف بعمق خصوصيات هذه التجارة كلّها، فأنا معتاد على متجري، وعلى حجمه، وعلى زبائني، ولو شرعت في بيع الشاي بأقداح من الكريستال، فإن القضيّة ستزداد أهميّة أكثر فأكثر، وسيتوجب علي أن أغير طريقتي في الحياة.

قاطعه الفتى:

- ألن يكون في هذا شيء حسن ؟

- أنا معتاد على نمط حياتي، فقبل مجيئك كنت أفكر بأنني قد أضعت وقتي بالمكان نفسه، بينما أصدقائي كلهم، على العكس، قد غيّروا أعمالهم، فبعضهم خسر، وبعضهم ازدهر عمله، وهذا ما جعلني أغرق في الغم، وأنا أعرف أن الأمر لم يكن فعلاً هكذا.

- فقد أصبح متجري بالمستوى الذي كنت أتمناه دائماً، ولا أريد التغيير لأنني لا أعرف كيف أتغير، وقد أصبحتُ منسجماً مع نفسي.

لم يدرك الشاب ما يعنيه، عندئذٍ أردف العجوز:

- لقد كنتَ بالنسبة لي بركة، و أنا اليوم أفهم شيئاً: هو أن أية نعمة يرفضها المرء يمكن أن تنقلب إلى نقمة، فأنا لا أنتظر شيئاً من الحياة، وأنت تجبرني على استشفاف ثروات، وآفاق لم تخطر لي على بال، وقد عرفتها الآن، وعرفت إمكانياتي الكثيرة، وسأتألم كثيراً لأنني لم أكن هكذا من قبل، لأنني أدرك الآن إنني أستطيع امتلاك كل شيء، لكنني لا أريد ذلك.

قال الشاب في نفسه:

((لحسن الحظ أنني لم أقل شيئاً لبائع الفشار)).

تابع الاثنان تدخين النرجيلة، بينما كانت الشمس تميل للغروب...

كان الشاب مسروراً لأنه يتكلم العربية، فمنذ عهد بعيد اعتقد أن

نعاجه تستطيع تعليمه كل شيء، لكنها كانت عاجزة عـن تعليمـه اللغـة العربية. فهناك أشياء أخرى في العالم لا تُحسن النعاج تعليمها للإنسـان، وهذا لأنها لا تبحث عن أي شيء آخر غير الماء والكلأ، أظن أنها ليست هي التي تعلم، وإنما أنا من يتعلم.

فكّر فى تلك الأشياء وهو ينظر للتاجر دون أن يقول شيئاً.

ثم قطع التاجر صمته أخيراً، وقال:

- مكتـــوب.

سأل الشاب مستغرباً:

- ماذا يعني هذا؟

فرد عليه التاجر:

-كان يجب أن تولد عربياً كي تفهـم ذلـك، لكـن يمكـن أن تكـون الترجمة شيء من هذا القبيل: ((هو شيء قد كُتـب علينـا))، وبينـما كـان يُطفئ جمرات النرجيلة، قال للشاب إنـه موافـق عـلى أن يقـدّم للزبـائن الشاي في أقداح من الزجاج.

ففي بعض الأحيان، يستحيل على المرء أن يسيطر على مجرى الحيـاة.

صار الناس يتسلّقون الطريق المنحدرة، وكانوا يشعرون بالتعب لدى وصولهم أعلاها. في علية ذلك المنحدر يوجد متجر للأواني الزجاجية الجميلة، وشاي بالنعناع يُشرب كمرطب لذيذ، كان الناس يدخلون لتناول الشاي الذي يقدّم لهم في كؤوس زجاجيّة رائعة.

قال رجل وقد اشترى بضع أكواب زجاجية:((لم تخطر ببال زوجتي إطلاقاً هذه الفكرة)).

فقد كان لديه زوار في ذلك المساء، وسوف يُفتنون بروعة هذه الأكواب. زبون آخر قال إن الشاي يكون أفضل عندما يُقدّم بكؤوس زجاجيّة، فهي تحافظ على طيب نكهته، فشرب الشاي بكؤوس زجاجيّة واحد من تقاليد الشرق بسبب مغرياته السحرية.

وفي وقت قصير ذاع الخبر بين الناس، وبدأ الكثير منهم يقصّدون قمة المنحدر، ليتعرّفوا على المتجر الذي ابتكر هذا التجديد لتجارة مندثرة، وافتتحت متاجر أخرى تقدّم الشاي في كؤوس من الزجاج، لكن موقعها لم يكن في عالية طريق منحدرة، الأمر الذي لم يجلب لها الزبائن بسرعة كبيرة، واضطرّ التاجر إلى تشغيل عاملين جديدين، وأصبح يستورد بالإضافة إلى الأواني الزجاجية، كميّات كبيرة من الشاي كي تفي بحاجة الاستهلاك المتزايد يوماً بعد يوم.

وهكذا مرّت ستة أشهر .

أفاق الشاب قبل طلوع الشمس، أحد عشر شهراً وتسعة أيام قد مرّت عليه منذ أن وطئت قدماه إفريقيا للمرة الأولى.

إرتدى العباءة العربية المصنوعة من الكتّان الأبيض، فلقد اشتراها خصيصاً من أجل هذا اليوم. ثم غطّى رأسه بعمامة مثبتاً إيّاها بعقال مصنوع من جلد الجمل، وأخيراً انتعل صندلاً جديداً، ونزل بهدوء.

كانت المدينة لا تزال غافية، تزوّد بفطور خفيف من خبز وسمسم، وشرب الشاي الساخن في كأس زجاجيّة، ثم جلس على عتبة المتجر وأخذ يدخّن النرجيلة وحده.

دخّن بصمت، دون أن يفكّر بشيء دون أن يسمع إلا وشوشة الريح المستمرّة التي كانت تصفر حاملة معها رائحة الصحراء، و عندما فرغ من تناول الشاي، وضع يده داخل واحدة من جيوبه، وظلّ للحظات يتأمل ما قد سحبه منها، إنه مبلغٌ جيّد من المال يمكن أن يشتري له مائة وعشرين نعجة، مع تذكرة عودته ورخصة استيراد وتصدير من بلده والبلد الذي يقيم فيه في الوقت الحاضر.

انتظر بفارغ الصبر استيقاظ التاجر العجوز من نومه، ثم جاء لفتح المتجر. وهكذا سيتناولان الشاي معاً هذا الصباح.

قال الشاب:

- في هذا اليوم سأنصرف، فقد صار لدي المال اللازم لشراء

أغنامي، وأنت أيضاً لديك ما يكفي كي تذهب إلى مكّة.

لم يقل التاجر العجوز شيئاً.

ألحّ عليه الشاب:

- أطلب مباركتك، فقد ساعدتني كثيراً.

تابع العجوز تحضير الشاي بصمت، وبعد لأي استدار نحو الشاب وقال:

- أنا فخور بك، فقد أنعشت متجري، ولكنني لن أذهب إلى (مكة)، أنت تعرف ذلك جيّداً مثلما أنت على يقين بأنك لن تشتري الأغنام أبداً.

سأل الشاب مندهشاً:

- من قال لك هذا؟.

أجاب تاجر الأواني الزجاجية العجوز بكل بساطة:

((مكتوب))، ثم باركه.

ذهب الشاب إلى غرفته، وجمع متاعه الذي ملأ ثلاثة أكياس، ولحظة الرحيل تماماً انتبه إلى جعبته العتيقة، جعبته كراعٍ، التي كانت ما تزال في إحدى زوايا الغرفة، وهي في حالة يرثى لها، لقد تناسى تماماً وجودها، وفي داخلها يوجد كتابه القديم، ومعطفه، وعندما سحبه منها، فكّر أن يقدمّه كهديّة لأول ولد يلتقي به في طريقه.

تدحرج الحجران أرضاً ((أوريم و توميم))، فتذكّر عندئذٍ الملك العجوز، وقد اندهش تماماً لدى إدراكه أن زمناً طويلاً قد مرّ دون أن يفكّر في لقاءه معه، فاستغراقه في العمل دون انقطاع لكسب المال الذي يجنّبه العودة ذليلاً خافض الرأس إلى أسبانيا، هذا الشعور الذى سيطر عليه ومنعه من تذكّر ذلك.

((لا تتراجع عن أحلامك، وكن منتبهاً إلى الإشارات)).

هذا ما قاله العجوز.

التقط ((أوريم و توميم)) من على الأرض، وقد تملّكه من جديد إحساس غريب بأن الملك على مقربة منه، وأنه قد عمل بشكل شاق طيلة سنة، وهاهي الإشارات تشير إلى أن لحظة الانطلاق قد بدأت.

ثم أطرق مفكراً:

- سأجد نفسي مثلما كانت عليه تماماً، إن النعاج لم تعلمّني أبداً أن أتحدّث العربيّة.

ومع ذلك فقد علّمته شيئاً مهماً آخر، وهو أن هناك لغة ما في العالم يفهمها الجميع، وقد استخدمها هو طيلة ذلك الوقت كي يعمل على الارتقاء بالمتجر، إنها لغة الحماس، أشياء يقوم بها المرء بحب وولع كي يحصل على نتيجة يأملها أو يؤمن بها، لم تعد (طنجة) بالنسبة إليه مدينة غريبة، فقد تولّد لديه شعور بأنه مثلما استطاع اكتشاف هذا المكان، فإنه بالمثل يستطيع اكتشاف العالم.

«عندما تريد شيئاً ما، فإن الكون كله يطاوعك لتحقيق رغبتك». كما قال الملك العجوز.

لكن الملك العجوز لم يتكلّم عن لصوص الصحراء الشاسعة، ولا عن الناس الذين يعرفون أحلامهم ولا يريدون تحقيقها، الملك العجوز لم يتحدّث عن الأهرامات على أنها كومة من الحجارة، وقد نسي أن يقول أيضاً أنه عند امتلاك المال لشراء قطيع أكبر من ذلك الذي كنت تملكه من قبل فلا تتردد بشرائه.

التقط الجعبة، وتناولها مع بقية الأمتعة الأخرى ونزل السلّم.

كان التاجر العجوز يلبّي طلبات زوجين أجنبيين، بينما زبائن آخرون يتناولون الشاي في المتجر في أقداح من الزجاج. بالنسبة لهذه الساعة من الصباح، كانت بداية جيّدة لنهار جديد.

ومن المكان الذي نظر فيه للتاجر، لاحظ للمرة الأولى أن شعره يشبه شعر الملك العجوز. ثم تذكّر ابتسامة بائع الحلوى أول يوم أفاق فيه في

(طنجه) حيث لم يكن لديه أية فكرة أين يذهب، ولم يكن لديه ما يطعمه، فقط تلك الابتسامة التي استدعت في خاطره ذكرى الملك العجوز.

قال الشاب في نفسه:

((إنه قد مرّ من هنا وترك بصمة، ربما كان واحد من هؤلاء الأشخاص قد سنحت له فرصة التعرف على الملك في لحظة أو أخرى من حياته، لقد قال أنه يظهر دائماً لمن يعيش أسطورته الشخصية)).

رحل، دون أن يودع تاجر الأواني الزجاجية فهو لا يريد أن يبكي، كان بإمكانه رؤيته، لكنه سيتحسّر على تلك الفترة، وعلى كل الأشياء الحسنة التي تعلّمها.

وازدادت ثقته بنفسه وأحس برغبة عارمة في اكتشاف العالم.

لكنه ذاهب باتجاه الريف الذي يعرفه جيّداً من قبل ليرعى أغنامه من جديد.

لم يعد مقتنعاً بقراره، إذ أنه عمل سنة بكاملها من أجل تحقيق حلم، صار مع مرور الوقت يفقد أهميّته شيئاً فشيئاً، ربما لأنه لم يكن حلمه من البداية.

((من يعلم؟ في نهاية الأمر، أليس من الأفضل أن أكون كتاجر الأواني الزجاجية الذي قرر عدم السفر مطلقاً إلى مكة والعيش مع رغبة

السفر إليها؟)).

لكنه يملك ((أوريم و توميم)) ، هذان الحجران يزودانه بقوة وإرادة ذلك الملك العجوز، ورد إلي ذهنه أنه بفعل المصادفة، أو بفعل إشارة ما، قد وصل إلى المقهى الذي ارتاده أول يوم، لم يشاهد فيه اللص ، بل جاءه صاحب المقهى بكوب من الشاي.

((بمقدوري دائماً أن أعود راعياً، لكن، ربما لن تتوفر لي بعد فرصة أخرى للذهاب إلى أهرامات مصر، فالرجل العجوز كان يمتلك قلادة من ذهب، وكان يعرف قصتي، إنه ملك حقيقي، ملك عالم)).

فهو على بعد أقل من ساعتي سفر بالقارب من سهول الأندلس، لكن بينه وبين الأهرامات، صحراء شاسعة.

لقد فهم أنه يمكن أيضاً تصوّر الموقف كما يلي:

إنه الآن على بعد ساعتين من كنزه، لكن هذه المسافة التي لا تستغرق أكثر من ساعتين من السفر قد كلّفته تكريس سنة كاملة من العمل.

((إنني أعرف جيداً لماذا أريد العودة إلى أغنامي، لأنني أعرف أنها لا تتطلب كثيراً من العمل، وأن المرء يستطيع أن يحبها، لكن لا أعرف إن كان يمكن للصحراء أن تُحب، علماً بأن الصحراء هي التي تحتوي على كنزي، وإذا لم أستطع إيجاده، بإمكاني الرجوع إلى بلدي، ومع ذلك فإن الحياة قد أعطتني فجأة المال الكافي، ولدي كل الوقت الذي أحتاجه، فلماذا أحجم إذن؟)).

في هذه اللحظة عاوده شعور عارم بالغبطة، فهـو يسـتطيع أن يعـود راعياً، ويستطيع أن يعود بائع أوان زجاجيّة، وربما يخفي العالم كثيراً مـن الكنوز الأخرى، لكنّه حلم بحلم تكرر، والتقى ملكاً، وهـذا لا يحـدث لكل الناس.

احتفظ ب((أوريم و توميم)) بـين يديـه، فبسـبب هـذين الحجـرين هاهو يعود إلى الدرب التي تؤدي به إلى كنزه.

((إنني دائماً مع هؤلاء الذين يعيشون أسطورتهم الشخصية)).

كما قال الملك العجوز.

ولم يفته الذهاب حتى المرفأ، ليعلم إن كانت الأهرامات بعيدة بالفعـل.

كان الرجل الإنكليزي جالساً في مدخل مبنى تصدر منه رائحة الدواب والعرق والغبار، وكأنه ليس بمرفأ وإنما حظيرة للماشية.

حدّث الإنكليزي نفسه وهو يتصفح مجلة عن الخيمياء:

((أمضي جلّ هذه الأيام، لأجد نفسي في مكان كهذا، عشرة أعوام من الدراسة كي أنتهي إلى حظيرة ماشية !)).

كان عليه أن يتابع طريقه وأن يؤمن بالإشارات، فكل حياته ودراساته قد كرّست في البحث عن اللغة الفريدة، التي يتحدث بها الكون، في البداية كان قد اهتم بالإسبرانتو، ثم بالأديان، وليتهي بالخيمياء، لقد أجاد التكلّم بلغة الإسبرانتو، وانسجم تماماً مع مختلف الأديان، لكنّه لم يصبح خيميائياً بعد، وقد نجح دون شك بتحليل أشياء هامة، لكن أبحاثه وصلت إلى مرحلة لم يعد يستطيع تجاوزها.

حاول إقامة علاقة مع أحد الخيميائيين، لا على التعيين، فالخيميائيون شخصيات غريبة لا يفكّرون إلا بأنفسهم، ويمتنعون في أكثر الأحيان عن تقديم مساعدتهم، من يعلم، ربما لم يكتشفوا بعد سر الإنجاز العظيم، الذي يسمونه «حجر الفلاسفة» ، ولهذا السبب ينعزلون على أنفسهم بصمت.

لقد أنفق جزءاً من الثروة التي تركها له والده باحثاً دون جدوى عن ((حجر الفلاسفة))، وتردد على أكبر مكتبات العالم، واشتري أهم وأندر

الكتب المتعلّقة بالخيمياء، ففي إحداها قد اكتشف أن خيميائياً عربياً زار أوروبا منذ سنوات عديدة، قيل أن عمره أكثر من مائتي عاماً وأنه اكتشف ((حجر الفلاسفة))، و ((إكسير الحياة)).

لقد أثّرت هذه القصة بالإنكليزي كثيراً، وكان يمكن لهذه الرواية أن تبقى مجرّد أسطورة من بين سائر الأساطير الكثيرة، لولا أن واحداً من أصدقائه العائدين من رحلة أثرية في الصحراء كان قد حدّثه عن أعرابي يعيش في واحة (الفيّوم)، يملك قدرات خارقة.

والناس يروون أن عمره مائتي عاماً، ويستطيع تحويل أي معدن إلى ذهب، عندها عرف الإنكليزي الذي أثارته القصة انفعالاً بلا حدود، فألغى في الحال كافة التزاماته السابقة، وجمع أهم كتبه والآن هاهو ذا هنا في هذا المرفأ المشابه لحظيرة الماشية.

وفي هذه الأثناء كانت قافلة كبيرة على أهبة الاستعداد للانطلاق لاجتياز الصحراء. وكانت هذه القافلة ستمر في طريقها بالفيوم.

فكّر الإنكليزي فى سره:

((لابد لي من أن ألتقي هذا الخيميائي اللعين)).

وعندها أصبحت رائحة الحيوانات محتملة بعض الشيء.

دخل شاب عربي يحمل أمتعته أيضاً إلى المبنى الذي يحل فيه الإنكليزي وحيّاه.

سأله العربي:

- أين تذهب؟

أجابه الإنكليزي:

- إلى الصحراء.

وعاد إلى قراءته، فلم تكن لديه الرغبة في المحادثة آنذاك، إذ كان بحاجة لمراجعة ما قد تعلّمه خلال تلك السنوات العشرة، لأن الخيميائي سيُخضعه بالتأكيد لنوع من الاختبار.

تناول الفتى العربي كتاباً أيضاً وأخذ يقرأ بدوره، كان الكتاب باللغة الأسبانية.

قال الإنجليزي في نفسه:

((إنني محظوظ، فهو يجيد الأسبانية أكثر من العربية، وإن كان هذا الفتى سيذهب إلى الفيّوم، فسوف أتحدث معه عندما لا أكون مستغرقاً في أمور هامة)).

قال الشاب في نفسه بينما كان يحاول قراءة مشهد الدفن الذي بدأت به القصة:

((هذا مضحك، على أية حال، لقد مرت سنتان على بداية قراءتي لهذا الكتاب، وحتى الآن لم أقرأ سوي بضع صفحات منه)).

لم يستطع التركيز، فهو مازال متردداً في القرار الذي عليه اتخاذه، لكنه يدرك الآن أن الأمر هاماً، و أن القرارات لا تمثّل سوي البداية، فعندما يتّخذ أي إنسان قراراً فإنه ينجرف في الحقيقة ضمن تيار عنيف يحمله نحو مصير لم يكن قد استشفه مطلقاً.

حتى في الحلم، في اللحظة التي اتخذ فيها القرار.

قال في نفسه ليؤكد استنتاجه:

((عندما اخترت الرحيل بحثاً عن كنزي، فلم أكن أتصور أنني سأعمل في متجر الأواني الزجاجية، وأيضاً، فإنه يمكن لهذه القافلة أن تنسجم مع قرار اتخذته، لكن مسيرتها ستبقى دائماً غامضة)).

في قبالته، أوروبي يقرأ كتاباً أيضاً، إنه سمج، فقد نظر إليه باحتقار لدى دخوله، كان من الممكن أن يكونا صديقين حميمين، لكن الإنجليزي قطع الطريق في الحال، أغلق الشاب كتابه ولم يرد أن يتصرّف بأي طريقة يبدو فيها مشابهاً لهذا الأوروبي، تناول من جيبه ((أوريم و توميم)) وأخذ يلعب بالحجرين.

فجأة أطلق الإنجليزي صرخة:

- ((أوريم و توميم)) !

وبأقصى سرعة أعاد الشاب الحجرين إلى جيبه، وقال:

- إنهما ليستا للبيع.

قال الإنكليزي:

- إنهما لا تشكّلان شيئاً قيّماً ، إنما بلّورات صخرية ليس إلا، فهناك ملايين منها على الأرض، ولكن بالنسبة لها إنهـا ((أوريـم و تـوميم))، لم أكن أعرف أنهما موجودتان في هذه البقعة من العالم.

قال الراعي:

- لقد أعطاهما لي ملك كهدية.

مكث الغريب مطرق الرأس ثم غرز يديه في جيبه وأخرج منها وهو يرتجف حجرين مماثلين.

- لقد تحدثت عن ملك ؟!

أجاب الشاب راغباً هذه المرة أن يضع حداً للحديث:

- ولكنك لا تعتقد بأن ملكاً سيتحدث إلى راعٍ، أليس كذلك؟

- بالعكس تماماً، إن الرعاة أول من رد الاعتبار للملك رفض بقية الناس الاعتراف به، وليس من الغرابة أن يتحدث الملوك إلى الرعاة.

ثم أضاف خشية أن يستعصى الفهم على الراعي:

- لقد ورد هذا في التوراة، فهو الكتاب، الذي علمني كيف أصنع هاتين الحجرين، كانتا الأداة الوحيدة للتنبؤ الذي يبيحه الله، والأساقفة يحملونها ضمن قلادة ذهبية.

أحس الشاب بالسعادة لوجوده في هذا المكان.

قال الإنكليزي كما لو كان يفكّر بصوت عالٍ:

- ربما تكون هذه إشارة .

سأله الراعي وقد ازداد اهتمامه شيئاً فشيئاً:

- من حدّثك عن الإشارات؟

قال الإنكليزي وهو يطوى المجلة التي يتصفحها:

- كل شيء في الحياة إشارة، لقد صُنِع الكون بلغة يستطيع العالم فهمها، لكن الإنسان نسيها، وأنا أبحث، من بين أشياء أخرى، عن هذه اللغة الكونية، ولهذا أنا هنا، فيجب على أن ألتقي رجلاً يعرف هذه اللغة الكونية، إنه خيميائى .

قطع مسئول المرفأ - وهو رجل ضخم الجثة - المحادثة بقوله:

- ستنطلق قافلة الفيّوم بعد ظهر هذا اليوم.

قال الراعي:

- لكنني ذاهب إلى مصر.

فأجاب الرجل الضخم:

- الفيّوم في مصر، وأنت تبدو لي عربي غريب.

-لا، إنني أسباني.

فرح الإنكليزي بذلك، فحتى لو ارتدى الشاب الزى العربي، فهو على الأقل أوروبي.

قال الإنكليزي بعد خروج الرجل:

- إنه يسمى الإشارات بالحظ، لو كنت أستطيع، لألّفت موسوعة ضخمة بخصوص كلمتي حظ ومصادفة، فبهاتين الكلمتين كُتبت اللغة الكونية.

ثم تابعا الحديث، فقال الإنكليزي للفتى بأنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون التقي به وهو يمسك بـ((أوريم و توميم)) ، وسأله إن كان هو أيضاً يمضي للبحث عن الخيميائي.

فأخبره الشاب بأنه يمضي للبحث عن كنز. وقد ندم على الفور .

لكن الإنكليزي لم يعلّق أية أهميّة على ما قاله الشاب لتوّه، ثم قال:

- بشكل أو بآخر أنا أيضاً كذلك.

فقال الشاب في نفسه:

((إنني لا أعرف حتى ما هي الخيمياء)).

قال رجل ذو لحية طويلة وعينين سوداوين:

- أنا رئيس القافلة، وإن حياة أو موت هؤلاء الذين أقودهم منوط بي، لأن الصحراء متقلّبة الأهواء، فهي تجعل الرجال مجانين أحياناً.

كانت القافلة تضم قرابة المئتي شخص، وكثيراً من الحيوانات: جمالاً، خيولاً، بغالاً، وطيوراً. وإلى جانب أولئك الرجال الذين يحمل بعضهم سيفاً في حزامه، أو بندقية على كتفه ، كان هناك نسوة وأطفال.

كان في حوزة الإنكليزي عدة حقائب سفر، مليئة بالكتب.

جلبة كبيرة كانت تهيمن على الساحة، وقد توجب على الرئيس أن يكرر خطابه عدة مرات كي يفهمه الجميع:

((يوجد هنا أنواع مختلفة من الناس، في قلوبهم مختلف أنواع الآلهة، أما أنا فإلهي الوحيد هو الله، وأقسم بالله أنني سأفعل ما بوسعي، وسأبذل قصارى جهدي كي أقهر الصحراء ثانية، لكنني أريد أن يقسم كل منكم بالإله الذي يؤمن به من أعماق قلبه، بأن يمتثل لقيادتي في كل الظروف، لأن التمرّد في الصحراء يعني الموت)).

ارتفع ضجيج يصمّ الآذان من الحشد الذي أخذ كل فرد من أفراده يقسم متخذاً إلهه شاهداً علي قسمه.

أقسم الشاب بالسيد المسيح، أما الإنكليزي فقد احتفظ بصمته، وقد استمرت التمتمة وقتاً يتجاوز أداء القسم، فقد كان الناس يرجون عناية

السماء أيضاً.

انطلق صوت بوق يؤذن بالانطلاق، وامتطى كل واحد سرج دابته.

الإنكليزي والشاب كانا قد اشتريا جملين، وواجها صعوبة بارتقاء ظهري مطيتيهما، وقد عبّر الشاب عن شفقته على مطية الإنكليزي المحمّلة بأكياس ثقيلة مليئة بالكتب.

قال الإنكليزي محاولاً متابعة المحادثة التي بدأت في المرفأ:

« ليس هناك مصادفات، إنه واحد من أصدقائي من حملني على المجيء إلى هنا لأنه كان يعرف عربياً بـ.... ».

لكن القافلة انطلقت، وصار من المستحيل أن يسمع ما كان يرويه، لكن الشاب فهم في الحال ما كان يرمي إليه، فهذه السلسلة الغامضة التي تربط شيئاً بآخر والتي قادته ليصبح راعياً، وأن يحلم مرات عديدة بالحلم نفسه، وتواجده في مدينة قريبة من إفريقيا، وأن يلتقي ملكاً في ساحة، وأن يُسرق ماله، وأن يتعّرف على تاجر الأواني الزجاجية و .. ...

استنتج الشاب محدّثاً نفسه:

«كلّما اقتربنا من تحقيق أحلامنا ، أصبحت الأسطورة الشخصيّة دافعاً حقيقياً للحياة ».

انطلقت القافلة باتجاه المشرق، فكانوا يجدّون في المسير في الصباح ويتوقفون للاستراحة عندما تصبح الشمس حارقة، ثم يواصلون السفر عندما تبدأ بالانخفاض. لم يكن الشاب يتكلّم كثيراً مع الإنكليزي الذي كان يمضي معظم وقته غارقاً في كتبه.

بدأ يراقب بصمت مسير الحيوانات والناس عبر الصحراء، حيث صار كل شيء مختلفاً عما كان عليه يوم الانطلاق، ففي ذلك اليوم عمّت الفوضى، وعلا الصراخ، وبكاء الأطفال، وحمحمة الدواب، وفي وسط هذه المعمعة كان هناك أوامر الأدلاء والتجار الحادة.

أما في الصحراء، فلم يكن هناك سوى الريح الأزليّة، والصمت الذي لا يبدده سوى وقع حوافر الدواب، حتى الأدلاء لم يتحدّثوا فيما بينهم إطلاقاً.

قال أحد الجمّالة ذات مساء:

((لقد اجتزت مرات عديدة امتدادات من الرمال كهذه، لكن الصحراء واسعة، والآفاق بعيدة، بحيث يشعر الإنسان بأنه صغير جداً أمامها، فنلتزم الصمت)).

فهم الشاب ما كان يريد الجمّال قوله على الرغم من أنه لم يكن قد طرق الصحراء من قبل، ولكن في كل مرة كان ينظر فيها إلى البحر أو النار، كان بمقدوره أن يقضي ساعات عديدة دون أن ينطق بكلمة،

خارقاً في قلب البعد الهائل والقدرة العجيبة لهذه العناصر.

قال في نفسه:

« لقد تتلمذت من معاشرة أغنامي، وتعلّمت وأنا أبيع الأواني الزجاجية، وأستطيع أيضاً أن أتعلم من الصحراء، فهي تبدو لي أكثر شيخوخة وأكثر حكمة ».

ما كانت الريح لتهدأ قط ، فتذكر اليوم الذي شعر فيه بهذه الرياح في (طريفة) عندما كان جالساً على الأسوار، ربما تداعب هذه الريح صوف نعاجه الآن، وهي تطوف حقول الأندلس سعياً وراء الماء والكلأ.

قال لنفسه دون أن يشعر بحنين حقيقي:

«لم تعد أغنامي، ولعلّها تعودت على راعٍ آخر ونسيتني بالتأكيد، فالوضع أفضل هكذا، فمن اعتاد على الترحال، كالأغنام، يعرف أنه لا بد أن يأتي وقت يكون فيه الرحيل أمراً لا مفر منه ».

ثم تذكّر ابنة التاجر، وشعر كأنه متأكد من أنها قد تزوجت، ربما من بائع فشار، أو من راع يجيد القراءة، يقص عليها عجائب الحكايات، فهو ليس الوحيد الذي يستطيع أن يفعل ذلك. لكن هذا الشعور الذي تملكه ولّد في نفسه شيئاً من القلق: هل كان يتعلّم بدوره هذه اللغة الكونية الشهيرة التي تعرف ماضي وحاضر الناس قاطبة؟ لا بد إنها هواجس، كما كانت تقول أمه دائماً.

بدأ يدرك أن هذه الأحاسيس عبارة عن حالات سريعة من غوص الروح في التيار الكوني للحياة، والذي يتعانق في رَحِمِهِ تاريخ كل الناس بتاريخ واحد، بطريقة نتمكّن معها أن نعرف كل شيء، لأن كل شيء مكتوب.

((مكتوب)) – قالها، وهو يفكّر بتاجر الأواني الزجاجية.

كانت الصحراء من رمل ومن حجارة، فلمّا كانت القافلة تصل أمام حجر كبير كانت تلف حولها، وإن كانت كتلة صخرية فإنها كانت ترسم لتجاوزها منعطفاً واسعاً، وعندما يكون الرمل ناعماً جداً بالنسبة لخف الجمال، فقد كانوا يبحثون عن ممر يكون فيه الرمل أكثر مقاومة، وأحياناً تكون الأرض مغطاة بالملح وذلك في موقع بحيرة قديمة، وعندما كانت الحيوانات تعاني من التعب، كان الجمّالة ينزلون الأحمال عن ظهورها ويساعدونها بحمل الأمتعة على ظهورهم لاجتياز الأماكن الوعرة، ثم يعيدون تلك الأمتعة من جديد إلى ظهور الدواب، وإذا مرض أو مات أحد الأدلاّء، فإنهم كانوا يقترعون ليختاروا بديلاً عنه.

لم يكن لكل هذا إلا سبب واحد، فعندما رأى الناس أمامهم عند الفجر بريق النجم الذي كانت تهتدي به إلى الوجهة التي توجد فيها الواحة في السماء أدركوا أنه يدلّهم على مكان فيه الماء والنساء والنخيل والتمر.

كان الإنكليزي الشخص الوحيد الذي لم يلاحظ شيئاً من كل هذا، لقد كان منهمكاً بقراءة كتبه.

والشاب أيضاً كان معه كتاب، وقد حاول قراءته منذ الأيام الأولى من السفر ولكنه وجد في مراقبة القافلة والإصغاء إلى الريح أمراً أهم من القراءة بكثير.

فمنذ أن تآلف مع جمله، وتعلّق به، ألقى كتابه واستراح من عبئه، ومع ذلك فإنه في كل مرة كان يفتح فيها هذا الكتاب، كان يتخيّل أنه سيلقى أحداً ذا أهميّة.

صداقة وثيقة قامت بينه وبين الجمّال الذي كان يتواجد باستمرار إلى جانبه، وعند استراحة المساء، أثناء السهرة حول النار، كان يروي له مغامراته عندما كان راعياً.

وخلال تلك المحادثات، أخذ الجمّال يحدّثه أيضاً عن حياته، فقال:

– كنت أسكن في بلدةٍ قرب القاهرة، كان لدي بستان، وأطفال، وحياة من الممكن ألا تتغير حتى مماتي، وفي إحدى السنوات أعطى البستان محصولاً وافراً، فسافرنا جميعاً إلى مكة لأداء الفرض الوحيد الذي لم أكن قد أديته حتى ذلك الحين، فشعرت بالطمأنينة والراحة، وباستعدادي للقاء الموت بسلام. وذات يوم، أخذت الأرض تهتز، وأخذ نهر النيل الفائض يخرج من مجراه، والذي كنت أعتقد أنه لن

يحدث إلا للآخرين، قد حدث لي أيضاً، خاف جيراني من فقد بساتين الزيتون بسبب الفيضان، وخافت زوجتي أن ترى الأطفال يغرقون، وخفت أنا من رؤية ما قد جنيته طيلة عمري ينهار.

وبعد لحظة تابع:

- لم يكن في اليد حيلة، ولم يكن هناك ما يمكن الحصول عليه من الأرض، فصرت مضطراً لإيجاد وسيلة أخرى للعيش، وها أنا الآن، جمّال. لكنني كنت أصغي إلى قوله تعالى ((قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له)). إن كل ما كنا نخشاه هو أن نخسر ما نملك، سواء ما يتعلّق بحياتنا أو بزراعاتنا، لكن هذا الخوف يتلاشى عندما نفهم أن مصيرنا ومصير العالم، قد خطّته يد واحدة.

كانت القوافل تتلاقى في فترة المساء، حيث تتبادل المساعدات، كما لو أن كل شيء كان فعلاً قد كُتب بيد واحدة.

كان الجمّالة يتبادلون المعلومات عن العواصف الرملية، ويجتمعون حول المواقد ليقصوا حكايات الصحراء، وفي أوقات أخرى يزورهم رجال ملثّمون، كانوا من البدو الذين يراقبون الطرق التي تسلكها القوافل، ويقدّمون المعلومات عن قطّاع الطرق أو عن القبائل المتمردة، يأتون بهدوء وينصرفون بهدوء، ملفحين بجلابيبهم السوداء، وملثّمين بطريقة لا تظهر منها إلا عيونهم.

وفي إحدى السهرات التي عقدت حول النار، انضم الجمّال إلى الشاب والإنكليزي اللذين كانا يجلسان قرب النار، فقال الجمّال:

- تنتشر إشاعات بأن حرباً ستقوم بين القبائل.

ظل الرجال الثلاثة صامتين، ولاحظ الشاب الأسباني أن نوعاً من الخوف الغامض يسري بينهم، علماً بأن أحداً منهم لم يتفوه بكلمة.

((مرة أخرى اكتشف لغة دون كلمات، إنها اللغة الكونية)).

بعد لحظات قليلة سأل الإنكليزي:

- أهناك ثمّة خطر؟

أجاب الجمّال:

- إن من يتوغل في الصحراء لا يستطيع العودة على أعقابه، وعندما لا نستطيع الرجوع إلى الخلف، فلن يكون أمامنا سوى التفكير بالطريقة الأفضل للمضي إلى الأمام، والباقي على الله، بما في ذلك الخطر.

وختم قوله وهو يلفظ هذه الكلمة الغامضة: مكتوب!

قال الشاب للإنكليزي بعد مغادرة الجمّال:

((عليك أن تعطي انتباهك أكثر إلى القوافل، فهي تلف وتدور كثيراً، لكنها تتوجه دائماً نحو النقطة نفسها)).

- وأنت عليكَ أن تقرأ أكثر عن العالَم، فالكتب تشبه القوافل تماما.

ذلك الموكب الكبير من الرجال والحيوانات، أخذ منذ ذلك الحين يتقدّم بوتيرة أسرع ، لم يعد الصمت يخيّم في النهار وحسب، وإنما بدأ يحل شيئاً فشيئاً في المساء أيضاً، حتى في اللحظة التي اعتاد فيها الناس على الثرثرة وهم مجتمعون حول النار. كما أن رئيس القافلة قرر ذات يوم عدم إشعال النار ليلاً كي لا يلفتوا الانتباه، وصار المسافرون عندئذٍ ينامون ضمن حلقة مكوّنة من الحيوانات كي يحموا أنفسهم من برد الليل، كذلك عيّن الرئيس خفراء مسلّحين لحماية المخيّم.

وفي إحدى الليالي، لم يستطع الإنكليزي النوم، فذهب إلى الشاب الأسباني، ثم سارا معاً بين الكثبان القريبة، كان القمر بدراً، وروى الشاب للإنكليزي كل شيء عن حياته.

بدا الإنكليزي مهتماً بشكل خاص لما رواه الشاب عن فترة عمله في متجر الأواني الزجاجية الذي ازدهر يوماً بعد يوم منذ أن بدأ الشاب يعمل به، وقال:

- هنا يكمن المبدأ الذي يؤثر في كل شي، هذا ما يسمّونه في الخيمياء روح الكون. فعندما نرغب في شئ من أعماق قلوبنا ، نكون أكثر قربا من روح الكون ، إنها لقوة إيجابيّة دائماً.

ثم قال أيضاً :

- إن هذا ليس من امتيازات البشر فقط، فكل ما هو موجود على سطح الأرض له روح أيضاً سواء كان معدناً، أو نباتاً، أو حيواناً، أو فكرة، وكل ما هو موجود تحت أو فوق سطح الأرض لا يتوقف عن التحوّل، لأن الأرض كائن حي ولها روح، ونحن جزء من هذه الروح التي نادراً ما ندرك أنها تعمل في مصلحتنا، وحتى في متجر الأواني عليك أن تعلم أن المزهريات كانت تتعاون لمساعدتك على النجاح .

احتفظ الشاب بالصمت لبعض الوقت متأملاً القمر والرمل الأبيض، ثم قال أخيراً :

- من خلال مراقبتي للقافلة وهى تسير عبر الصحراء، أدركت أنها والصحراء تتكلّمان لغة واحده، ولهذا السبب سمحت لها بعبورها، ولم تتوقف الصحراء عن مراقبة كل خطوة من خطواتها لتتحقق إن كانت على ائتلاف كامل معها، وإن كان الأمر كذلك، فإن القافلة ستصل حتى

الواحة، ولو أن الواحد منا وعلى الرغم من الشـجاعة التـي يملكهـا، لم يفهم هذه اللغة لهلك من اليوم الأول.

أردف الشاب:

-هذا هو سحر الإشارات ، لقد رأيت كيف يقـرأ الأدلاّء علامـات الصحراء، وكيف أن روح القافلة تتحاور مع روح الصحراء.

وبعد فترة وجيزة من الوقت جاء دور الانكليزي في الحديث، فقال:

- ينبغي بالفعل، أن أولي القافلة انتباهاً أكثر.

فأردف الشاب:

((وأنا عليّ أن أقرأ كتبك)).

كانت كتباً غريبة فعلاً، تتحدث عن الزئبق، عن الملح، عن التنبؤات، عن الملوك، لكنه لم يكن ليفهم منها شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك كانت هناك فكرة تذكرها كل الكتب تقريباً، وهي أن الأشياء كلها ليست إلا تجليّات لشيء واحد وفريد.

وقد اكتشف في أحد الكتب، أن أهم بحث في الخيمياء يتكون من بضعة أسطر فقط، كُتبت على زمرّدة صغيرة.

قال له الانكليزي بكل فخر، لأنه استطاع أن يعلّم رفيقه شيئاً:

«إنه لوح الزمرّد».

- ولكن لماذا كل هذه الكتب إذن؟

أجاب الإنكليزي دون أن يكون مقتنعاً تماماً بهذا الجواب:

- لكي تساعدني على فهم هذه السطور القلائل.

أما الكتاب الذي أثار اهتمام الشاب أكثر من بقيّة الكتب كلها، فقد كان يروي تاريخ مشاهير الخيميائيين، لقد كانوا رجالاً نذروا حياتهم كلها في تنقية المعادن في مختبراتهم، وكانوا يعتقدون بأنه عند تسخين معدن ما لسنوات وسنوات، فإنه يتحرر من كل خواصه النوعيّة، وعندئذٍ لن يبقى في مكانه إلا روح الكون، وهذا الشيء الفريد سيمكّن الكيميائيين من فهم كل ما يوجد على الأرض، لأنه اللغة التي بفضلها تتواصل الأشياء مع بعضها بعضاً.

هذا هو الاكتشاف الذي أطلقوا عليه اسم ((الإنجاز العظيم)) والذي يتآلف من جزء سائل وجزء صلب.

سأل الشاب:

- ألا تكفي مراقبة البشر والإشارات لاكتشاف هذه اللغة؟

أجاب الإنكليزي بانزعاج:

- لديك هوَس مفرط في تبسيط الأشياء، فالخيمياء عمل جاد ودءوب، ومن المحتّم متابعة كل مرحلة من مراحل سير العملية ، كما علمنا المعلّمون.

اكتشف الشاب أن الجزء السائل من الإنجاز العظيم هو المادة التي تدعى ((إكسير الحياة))، وهذا الإكسير لم يكن يشفي الأمراض فحسب، بل يحمي الخيميائي من الشيخوخة أيضاً.

أما الجزء الصلب فهو ما يُدعى ((حجر الفلاسفة)).

قال الإنكليزي:

- ليس من السهل أبداً اكتشاف ((حجر الفلاسفة)) ، فالخيميائيون كانوا يمضون سنوات عديدة في مختبراتهم لمراقبة النار التي تنقّي المعادن، وطوال مراقبتهم للنار، كانوا ينقون ضمائرهم شيئاً فشيئاً من كل أباطيل العالم، إلى أن لاحظوا ذات يوم أن تنقية المعادن كانت تطهّر نفوسهم أيضاً.

تذكّر الشاب حينذاك بائع الأواني الزجاجية ،عندما قال، أن عليهما تنظيف أوانيهما الزجاجيّة لأنهما سيجدان نفسيهما أيضاً قد تخلّصا من الأفكار السيئة، ولقد اقتنع أكثر فأكثر بأنه يمكن تعلّم الخيمياء في الحياة اليومية أيضاً.

تابع الإنكليزي:

- بالإضافة إلى ذلك، فإن ((حجر الفلاسفة)) يمتلك خاصيّة خارقة للمألوف تماماً، فيكفي جزء صغير منها لتحويل كميّات كبيرة من معدنٍ بخس إلى ذهب.

إنطلاقاً من هذا، فإن اهتمام الشاب بالخيمياء صار أكبر بكثير، فقد فكّر بأنه بقليل من الصبر سوف يستطيع تحويل كل شي إلى ذهب.

لقد قرأ سيرة حياة الأشخاص الذين تمكنوا من تحقيق ذلك ،أمثال هيلفتيوس، إيلي، فولكانولي، جيبير، وكانت سيرهم جذّابة، فكلّهم عاشوا أساطيرهم الشخصية حتى النهاية، كانوا يسافرون، يلتقون العلماء ويصنعون المعجزات على مرأى من عيون المشككين، وكانوا يملكون ((حجر الفلاسفة)) و((إكسير الحياة)).

لكنه عندما كان يريد أن يتعلّم بدوره كيفية استخلاص هذا الإنجاز العظيم، فقد كان يجد نفسه محتاراً، فلم يجد في تلك الكتب إلا رسوماً، ورموزاً، ونصوص غامضة.

سأل الإنكليزي ذات مساء:

- لماذا يستعملون لغة يصعب فهمها جداً ؟

غير أنه لاحظ، في هذه المناسبة، أن الإنكليزي لم يكن صافي المزاج، كما لو انه كان يفتقد كتبه.

بيد أن الإنكليزي أجابه عن سؤاله قائلاً :

- لكي لا يفهمه إلا الذين لديهم المسئولية الكافية للقدرة على الفهم، فتصوّر لو أن كل الناس استطاعوا تحويل الرصاص إلى ذهب، عندئذٍ وخلال زمن قصير جداً، سيفقد الذهب قيمته ولن يساوي شيئاً. وحدهم فقط أصحاب العقول العتيدة من الباحثين هم الذين يتوصلّون إلى الإنجاز العظيم. فهذا هو سبب وجودي في وسط الصحراء،كي ألتقي خيميائياً حقيقياً يعينني على فك الرموز.

سأل الشاب:

- في أي وقت كُتبت هذه الكتب؟

- منذ عدة قرون، في ذلك الزمن لم تكن المطبعة قد اختُرعت بعد، فلم يكن يتسنّى لكل الناس التوصّل إلى معرفة الخيمياء.

- لماذا إذاً هذه اللغة الغريبة؟ وكل هذه الرسوم والأشكال؟

على الرغم من هذا الإلحاح، فإن الإنكليزي لم يجب على هذا السؤال، بل اكتفي بأن قال أنه يراقب القافلة منذ عدة أيام دون أن يكتشف شيئاً جديداً، ولم يلاحظ إلا إنهم يتحدّثون أكثر عن الحرب.

أعاد الشاب، ذات صباح، الكتب إلى الإنكليزي، الذي سأله بإلحاح، فقد كان بحاجة إلى من يثرثر معه لينسى الخوف من الحرب.

- حسناً، هل تعلّمت الكثير؟

- تعلّمت أن للكون روحاً، وأن يدرك هذه الروح سيدراك لغة الأشياء، وعلمت أن العديد من الخيميائيين قد عاشوا أساطيرهم الشخصية، وتوصلوا إلى اكتشاف روح الكون و«حجر الفلاسفة» و«إكسير الحياة». لكنني تعلّمت على الأخص أن هذه الأشياء على درجة من البساطة بحيث يمكن أن تُنقش على زمرّدة.

شعر الإنكليزي بالخيبة لدى رؤيته أن حصيلة سنوات الدراسة والرموز الغامضة، والكلمات المتعذّرة الفهم، وأجهزة المختبرات، لم تجذب انتباه الشاب.

تناول كتبه وأعادها إلى الأكياس المعلّقة بسرج الجمل، وقال للفتى:

- عد إلى قافلتك، هي أيضاً لم تعلّمني شيئاً يُذكر.

عاد الشاب إلى تأمّل اتساع الصحراء، والرمال التي تثيرها الحيوانات في سيرها. وكان يردد في نفسه:

«لكل منا طريقته في التعلّم، فنهجه ليس نهجي، ولكن، كل واحد منا يسعى وراء أسطورته الشخصية، ولهذا فإنني احترمه.

صارت القافلة تسير ليل نهار، وفي كل لحظة كان يظهر لهم الرسل الملثمين، والجمّال الذي غدا صديقاً للشاب، أخبرهم بأن الحرب بين القبائل قد نشبّت، وإنهم سيكونوا محظوظين لو نجحوا في الوصول إلى الواحة، فلقد أنهكت الحيوانات، والناس سادهم الصمت أكثر فأكثر، وأصبح رغاء جمل ما يخيف كل الناس، والذي لم يكن سابقاً سوى جمل يرغي، لعلّ في ذلك مؤشر لبدء هجومٍ ما، ومع ذلك فإن الجمّال، لا يبدو مضطرباً من خطر اندلاع الحرب.

قال للشاب وهو يلتهم حفنة من البلح في ليلة غاب عنها القمر:

- أنا حي، عندما آكل فإنني لا أفعل شيئاً آخر سوى الأكل، وعندما أمشي فإنني أمشي، هذا كل شيء، وإذا اضطررت يوماً للقتال، فكل الأيام تتساوى عند الموت، فأنا لا أحيا في ماضيَّ ولا في مستقبلي، فليس لي سوى الحاضر لأعيشه. وإن كنت تستطيع أن تعيش الحاضر دوماً، فأنتَ إذاً رجل سعيد، وستدرك أن في الصحراء حياة، وفي السماء نجوم، وأن المتقاتلين يتحاربون لأن هذا جزءٌ من الحياة، والحياة ستصبح عندئذٍ احتفالاً كبيراً لأنها تمثّل دائماً اللحظة التي تعيشها فقط.

بعد انقضاء ليلتين، وبينما كان الشاب على وشك النوم، قال له الجمّال: إنها الواحة.

- لماذا إذن لا نذهب إليها حالاً ؟

- لأننا بحاجة للنوم.

فتح عينيه عندما كانت الشمس تنبثق من الأفق البعيد، هناك، حيث كانت النجوم الصغيرة تتلألأ في الليل، وكان صف من أشجار النخيل يمتد بلانهاية، ويحتلّ كل اتساع الصحراء.

هتف الإنكليزي الذي أفاق لتوّه فرحاً:

- لقد وصلنا إليها.

ظلّ الشاب صامتاً، فقد تعلّم الصمت من الصحراء، واكتفى بمشاهدة أشجار النخيل تنتصب أمامه، كان ما يزال عليه أن يقطع درباً طويلة كي يصل إلى الأهرامات، وفي يوم ما لن يكون هذا الصباح سوى ذكرى، أما الآن، إنها لحظة الحاضر، العيد الذي تكلّم الجمّال عنه، وكان يحاول أن يعيش هذه اللحظة مع العِبر التي استقاها من ماضيه، والأحلام التي يرسمها من أجل مستقبله، ويوماً ما لن تكون رؤية هذه الآلاف من أشجار النخيل سوى ذكرى، لكنها الآن تعني بالنسبة إليه الظل والماء والملاذ من الحرب.

بالطريقة نفسها التي يبدو فيها جمل يرغي علامة للخطر، وأيضاً عندما يمكن لصف من أشجار النخيل أن يمثّل معجزة.

ردد في نفسه، قائلاً:

((إن العالم يتكلّم بأكثر من لغة)).

عندما يتسارع مرور الزمن، فإن القوافل أيضاً تسرع بالمسير، هكذا فكّر الخيميائي وهو يرى مئات الأشخاص والحيوانات يصلون إلى الواحة، وسكّانها الذين يندفعون للقاء القادمين الجدد، والغبار المتصاعد الذي يحجب شمس الصحراء والأطفال يقفزون مبتهجين لدى رؤية الغرباء.

لاحظ الإنكليزي أن شيوخ القبائل كانوا يتجمّعون للقاء رئيس القافلة، وان اجتماعهم معه قد طال، لكن هذا لم يثر اهتمامه بشيء، لقد استطاع أن يرى من قبل الكثير من الناس يصلون ويرحلون، ومع ذلك كانت الواحة والصحراء ثابتتين لا تتغيران، كان قد رأي ملوكاً، ومتسوّلين يجوبون هذه المساحات المديدة والرمال التي يتغير شكلها بفعل الرياح، لكنها كانت هي نفسها تلك التي عرفها منذ كان صغيراً، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يكن يستطيع أن يخمد في أعماق قلبه شيئاً من ذلك الحبور الذي يشعر به كل مسافر، وذلك عندما رأى اخضرار النخيل يحلّ محلّ صفرة الأرض وزرقة السماء.

قال في قرارة نفسه:

((ربما خلق الله الصحراء كي يبتهج الإنسان عند مشاهدة أشجار النخيل)).

قرر عندئذ أن يفكّر بمسائل أكثر عملية، كان يعلم أن مع هذه القافلة سيصل إلى الإنسان الذي يتوجب عليه أن يعلّمه جزءاً من

أسراره، فقد أخبرته الإشارات بذلك.

لم يكن يعرف بعد هذا الإنسان، لكن عينيه الخبيرتين ستتعرفان عليه لمجرّد رؤيته، كان يأمل أن يكون موهوباً كتلميذه السابق.

ردد في أعماقه:

((لستُ أدري لماذا ينبغي لهذه الأشياء ألا تُنقل إلا بالسر فقط، هذا ليس لأن الأمر يعني تماماً أسراراً حقيقية، فالله قد كشف أسراره بحريّة إلى كل المخلوقات)).

لم يكن يرى لهذا إلا تفسيراً واحداً: هو أن هذه الأشياء قد توجّب عليها الانتقال بهذه الطريقة، لأنها دون شك قد استخلصت من حياة طاهرة. وأنه من الصعب لهذا النموذج من الحياة أن يُحَدَّ على شكل رسوم أو كلمات، لأن الناس يستسلمون لإغراء الرسوم والكلمات، وفي النهاية ينسون اللغة الكونية.

أقتيد القادمون الجدد في الحال إلى شيوخ قبائل واحة الفيّوم، لم يكن الفتى ليستطيع أن يصدّق ما تراه عيناه، فبدل أن يرى بئراً محاطة ببعض أشجار النخيل. لاحظ أن الواحة أكبر بكثير من عدة قرىً مجتمعة في أسبانيا، فهي تحتوي على ثلاثمائة بئراً، وخمسين ألف نخلة، وعدد كبير من الخيام الملوّنة تنتشر بين أشجار النخيل.

قال الإنكليزي، وهو متلهف لمقابلة الخيميائي:

-كأننا نعيش حكاية في ألف ليلة وليلة.

وخلال لحظات أحاط بهم أطفال ينظرون بفضول إلى المطيات والجمال والناس القادمين، كان الرجال يريدون أن يستعلموا عن أي إشارات تدل على حدوث معارك، والنساء كنَّ يتنازعن على الأقمشة والأحجار الكريمة التي أحضرها الباعة.

حينئذٍ، بدا صمت الصحراء حلماً بعيداً، فالجميع يتكلّمون دون انقطاع، يضحكون، ويغنون بأعلى أصواتهم، وكأنهم خرجوا من عالم الروح، ليجدوا أنفسهم في عالم البشر، كان الناس فرحين وراضين.

على الرغم من التدابير التي اتُخذت أمس، فإن الجمّال قد شرح للشاب أن الواحات في الصحراء، تُعتبر دائماً أرضاً حياديّة، لأن معظم من يعيش بها هم من الأطفال والنساء، والمتحاربين يذهبون ليتعاركوا وسط رمال الصحراء، تاركين الواحات بسلام كأماكن ملاذ.

جمع رئيس القافلة كل أفرادها، ولم يكن هذا ليتم بسهولة، وأخبرهم أنهم سيحلّون ضيوفاً لدى سكّان الواحات، الذين سيستقبلونهم في خيامهم وسيقدّمون لهم صدر المكان، طالما أن الحرب قائمة بين العشائر، فهذا هو قانون الضيافة التقليدي.

ثم طلب من الجميع بما فيهم حرّاسه، بتسليم أسلحتهم إلى الرجال الذي عيّنهم رؤساء العشائر.

ثم قال لهم موضحاً :

«تلك هي قواعد الحرب، فالواحة لا يمكن أن تكون ملاذاً للمتحاربين».

ولشدّ ما ذهل الشاب عندما رأي الإنكليزي يخرج من جيبه مسدساً مطلياً بمعدن الكروم ويسلّمه للرجل المكلّف بجمع الأسلحة.

فسأله:

- لماذا تحمل مسدساً؟

أجاب الإنكليزي وهو بادي السعادة لبلوغه هدفه:

- كي يساعدني على الثقة بالناس.

من جهته كان الشاب يحلم بكنزه، وكلّما اقترب منه أكثر تبدو الأمور أكثر صعوبة، ولم يعد يتجلى ما سماه الملك العجوز بحظ المبتدئ، إنه

يعرف أن امتحان الإصرار والشجاعة لمن يبحث عن أسطورته الشخصية قد بدأ الآن ، لذلك يجب ألا يتسرع، وألا يكون نافذ الصبر، حتى يتمكن من رؤية الإشارات التي وضعها الله في طريقه.

((إن الله من وضعها في طريقي)).

فكّر فى ذلك باندهاش، فهو نفسه حتى الآن يعتبر الإشارات كشيء ينتمي إلى العالم، شيء ما كالأكل، أو النوم، كالرحيل بحثاً عن الحب أو عن العمل، لكنه لم يخطر بباله أبداً، أن تكون لغة يخاطب الله بها عبده ليرشده إلى ما عليه أن يفعل.

ردد في سره:

-لا تكن لحوحاً، ومثلما قال الجمّال « كُل عندما يحين وقت الطعام، وسِر عندما تحين ساعة السير)).

في اليوم الأول كان الجميع نائمين تحت تأثير التعب، بما فيهم الإنكليزي، ألفي الشاب نفسه بعيداً في خيمة يشغلها خمسة فتيان آخرين من أقرانه.

كانوا من سكان الصحراء، ويتوقون إلى سماع القصص عن المدن الكبرى، وتحدّث الشاب إليهم عن حياته كراع، وكان علي وشك أن يأتي على ذكر تجربته في متجر الأواني الزجاجية عندما دخل الإنكليزي وقطع عليه ذلك.

قال الإنكليزي وهو يصحب رفيقه إلى الخارج:

- لقد بحثتُ عنك كثيراً، يجب أن تساعدني على معرفة أين يسكن الخيميائي.

حاولا في البداية إن يعثرا عليه بوسائلهما الخاصة.

لا شك أن الخيميائي يعيش بنمط مختلف عن باقي سكان الواحة، ومن المُحتمل كثيراً وجود فرن مشتعل على الدوام في خيمته، وبعد طول مسير، انتهيا إلى إدراك شيء واضح وهو أن الواحة أكثر اتساعاً مما كانا يتصوّران، وأن فيها مئات ومئات من الخيام.

قال الإنكليزي، وهو يجلس مع رفيقه قرب أحد آبار الواحة:

- لقد أضعنا نهاراً كاملاً.

فرد عليه الشاب:

-ربما كان من الأفضل أن نسال عنه.

لم يكن الإنكليزي يرغب في أن يفصح عن سبب وجوده في الفيّوم، وبدا متردداً، لكنه وافق في النهاية وطلب من الشاب الذي يفوقه في التحدث بالعربية، أن يأخذ الأمر على عاتقه.

تقدّم الشاب من امرأة وصلت لتوّها كي تملأ قربتها ماءً وسألها:

- مساء الخير يا سيّدتي ! أودُّ لو أعرف أين يقيم خيميائى يعيش في

هذه الواحة.

أجابت المرأة بأنها لم تسمع على الإطلاق أحداً أتى على ذكره. لكنها قبل أن ترحل نبّهت الشاب إلى عدم حقه في التوجه بالحديث إلى نساء يتّشحن بالسواد، لأنهن نساء متزوّجات، وهذا من التقاليد التي يجب احترامها، ثم انصرفت في الحال.

أحس الإنكليزي بخيبة أمل حادة، فهذا يعني انه قام بكل هذه الرحلة من أجل لاشيء !

أحس رفيقه بالأسف أيضاً، فالإنكليزي مثله كان يسعى وراء أسطورته الشخصية، وعندما يكون المرء في هذا الصدد، فإن العالم بأسره يتضافر ليساعده في الحصول علي ما يريد، هكذا قال الملك العجوز، ولا يمكن له أن يُخطئ.

قال أحد الشبان:

- لم اسمع قط أحداً يتكلّم عن خيميائيين أمامي، وإلا لما ترددت في مساعدتك.

بريق من الأمل شع من نظرة الإنكليزي وهتف قائلاً:

- لكن هذا مؤكد، فربما ليس هنا من يعرف ما هو الخيميائي ... اسأل عن الرجل الذي يعالج أمراض القرية كلها.

عدة نساء يرتدين السواد، جئن إلى البئر لإحضار الماء، لكن الشاب

لم يتحدّث إليهن على الرغم من إلحاح الإنكليزي، وأخيراً اقترب رجل منهما، فسأله الشاب:

- هل تعرف أحداً يعالج الأمراض في القرية؟

أجاب الرجل وقد بدا عليه الخوف من هذين الغريبين:

-إن الله هو الذي يعالج الأمراض كلها، أنتما تبحثان عن سحرة، أنتما الاثنين..!

ومضي في طريقه، بعد أن تلا عدة آيات من القرآن.

ثم ظهر رجل آخر، كان أكبر عمراً من سابقه يحمل دلواً صغيراً، فطرح الشاب عليه السؤال نفسه.

أجاب الرجل العجوز بعد قليل من التفكير:

-إن كان هناك وجود لهذا الرجل، فلابد أنه على درجة كبيرة من القوة، حتى أن شيوخ العشائر لا يستطيعون رؤيته متى احتاجوا إليه. يجب أن يقرر هو ذلك، انتظرا بالأحرى نهاية الحرب، وارحلا مع القافلة، ولا تسعيا أبداً إلى التوغل في حياة الواحة.

هكذا ختم قوله وهو يبتعد عنهم.

عندئذٍ، بدت شابة ترتدي ثياباً مختلفة، كانت تحمل جرّة على كتفها، وتضع خماراً حول رأسها، لكنها كانت سافرة الوجه. تقدم الشاب نحوها ليسألها عن الخيميائي.

عندها، أحس الشاب كما لو أن الزمن توقف، وكما لو أن روح الكون تنبعث بكل قوّتها أمامه. وعندما رأى عينيها السوداوين، وشفتيها الحائرتين بين الصمت والابتسام، فهم الجزء الجوهري من اللغة التي يتحدّث بها العالم، والتي باستطاعة كائنات الأرض كلها أن تفهمها عبر القلوب.

كان هذا هو ما يدعى بالحب، إنه شيء أقدم من وجود البشر ووجود الصحراء، وهو ما كان وما يزال ينبثق دائماً وبقوة، وفي كل مكان عندما تلتقي نظرتان كما تلتقي الآن هاتان النظرتان قرب البئر. انفرجت الشفتان عندئذٍ عن ابتسامة، إنها علامة، علامة قد انتظرها دون أن يعلم خلال فترة طويلة من حياته، ولطالما بحث عنها في الكتب، وقرب نعاجه، وفي الأواني الزجاجية، وفي صمت الصحراء.

هاهي ذي لغة الكون الخالصة، مفهومة دون أدنى شرح، لأن الكون ليس بحاجة إلى أي تفسير كي يتابع دورانه في الفضاء اللامتناهي.

إن ما فهمه في تلك اللحظة هو أنه أمام رفيقة حياته، وعليها أن تعلم ذلك دونما أية حاجة للكلام، كان متأكداً من هذا أكثر من تأكده من أي شيء آخر في العالم، على الرغم من أن آبائه وآباء آبائه كانوا قد قالوا إن على الإنسان أن يحب أولاً، ثم يخطب، وأن يعرف الآخر، وأن يملك المال قبل أن يتزوج.

من كان يقول ذلك، لم يكن يعرف مطلقاً اللغة الكونية، لأن المرء

عندما يغوص في هذه اللغة يسهل عليه أن يدرك أن في هذا العالم يوجد شخص ما ينتظر شخصاً آخر، سواء أكان هذا في وسط الصحراء أو في قلب المدن الكبرى، وعندما يلتقيان، وتتقاطع نظرتاهما، فإن الماضي والمستقبل لا أهميّة لهما، ولحظة الحاضر وحدها هي التي تبقى.

وهذا اليقين العجيب بأن كل شيء يوجد تحت قبة السماء قد خطّته اليد نفسها، اليد التي خلقت الحب، وخلقت لكل كائن روح شقيقه، وهذا الكائن يعمل، ويستريح، ويبحث عن الكنوز في وضح النهار، ولو أن الأمر لم يكن كذلك، لما وجد أي معنى لأحلام الجنس البشري.

قال في نفسه ((مكتوب)).

نهض الإنكليزي، وحرّك صاحبه قائلاً:

– هيا اذهب واسألها.

اقترب الشاب من الفتاة التي ابتسمت من جديد، فابتسم وسألها:

– ما اسمك؟

أجابت وهي تغض من طرفها.

– فاطمة، إنه اسم تحمله بعض النسوة في البلد الذي جئتُ منه. إنه اسم ابنة النبي، ومجاهدونا قد نقلوه إلى هناك.

كانت الفتاة الجميلة تتحدث بفخر عن المجاهدين، والإنكليزي يقف بجواره ويلح عليه، فسألها الشاب إن كانت تعرف شيئاً عن

الرجل الذي يشفي الأمراض.

أجابت:

- إنه رجل يعرف أسرار العالم، وهو يتكلّم مع جن الصحراء، والجن هم جن الخير وجن الشر.

وأشارت الشابة بإصبعها باتجاه الجنوب، حيث تسكن هذه الشخصية الغريبة، ثم ملأت جرّتها ورحلت، وذهب الإنكليزي أيضاً للبحث عن الخيميائي، وبقي الشاب جالساً بجانب البئر لوقتٍ طويل، وقد أدرك أن ريح الشرق التي حملت إليه ذات يوم عطر هذه المرأة، وأنه أحبها قبل أن يعلم إن كانت موجودة فعلاً، وأن الحب الذي يكنّه لها سوف يدفعه إلى اكتشاف أسرار الكون كلّها.

عاد الفتى، في اليوم التالي، إلى البئر لينتظر فتاته هناك، لكنـه تفاجـأ بوجود الإنكليزي يتأمل الصحراء للمرة الأولى.

قال الإنكليزي:

- لقد انتظرت طوال العصر والمساء، لقد وصـل الخيميـائي عنـدما ظهرت أولى النجوم في السماء، وأخبرتـه عـما أبحـث عنـه، وسـألني إن كنت قد حوّلت الرصاص إلى ذهب، فأجبته بأن هذا ما أتمنى فعله عـلى وجه التحديد، طلب مني عندئذٍ أن أحاول، ولم يقـل شـيئاً آخـر سـوى هاتين الكلمتين: « أذهب وجرّب ».

مكث الشاب صامتاً، وهكـذا فـإن الإنكليـزي قـد قطـع كـل هـذه المسافة ليسمع ما عرفه من قبل، وتذكّر الشاب أنه هو نفسـه قـد أعطـى ست نعاج إلى الملك العجوز مقابل نتيجة مشابهة.

قال للإنكليزي:

- جرب، إذاً.

- هذا فعلاً ما سأفعله، وسأبدأ حالاً.

بعد انصرافه بقليل، وصلت فاطمة إلى البئر لتملأ قربتها؛ فقال لها:

- أتيت لأفضي إليك أمراً: أريدك أن تكوني زوجتـي، إنني أحبك.

تركت الشابة الإناء يطفح بالماء، وتابع الشاب:

- سأنتظرك هنا كل يوم، فقد عبرت الصحراء باحثاً عن كنز موجود قرب الأهرامات، كانت الحرب بالنسبة لي نقمة، والآن اعتبرها نعمة لأنها تبقيني هنا بقربك.

ردت عليه الفتاة:

- لابد للحرب أن تنتهي يوماً ما.

تأمل أشجار النخيل، وتذكر أنه كان راعياً، وكان يملك قطيعاً من الغنم، أما فاطمة فهي بالنسبة له أهم من الكنز بكثير.

قالت، كما لو أنها تقرا أفكاره:

- المقاتلون يبحثون عن كنوزهم ، ونساء الصحراء فخورات بمقاتليهم.

ثم ملأت جرّتها ، وانصرفت من جديد.

صار الشاب يأتي كل يوم إلى البئر ينتظر قدوم فاطمة، يحدّثها عن حياته كراعٍ، وعن لقاءه بالملك، وعن متجر الأواني الزجاجيّة.

صارا صديقين، وصار يجد الوقت طويلاً جداً بقيّة النهار ماعدا الخمس عشرة دقيقة التي كان يقضيها بصحبتها.

بعد مضى شهر تقريباً على وجوده في الواحة، دعا رئيس القافلة الناس كلّهم إلى الاجتماع، وقال لهم:

- نحن لا نعرف متى ستنتهي الحرب ولن نستطيع استئناف السفر، فالمعارك ستستمر دون شك وقتاً طويلاً، وربما سنوات... وفي كل جانب يوجد مقاتلون شجعان وأشدّاء، وكلٌّ من الجيشين يعتز بالقتال، ليس هناك حرب بين الأخيار والأشرار، إنها حرب بين قوىً تتصارع للوصول إلى السلطة نفسها، وعندما تنشب معركة من هذا النوع، فإنها تستمر أكثر، لأنه في مثل هذه الحالة يكون الله مع الجانبين في آنٍ واحد.

تفرّق الناس، وفي ذلك المساء رأى الشاب فاطمة من جديد، ونقل لها ما دار في الاجتماع.

قالت فاطمة:

- في لقاءنا الثاني، حدّثتني عن حبك، ثم علّمتني الكثير من الأشياء الجميلة، مثل اللغة الكونية، وروح الكون، وكل هذا قد جعل مني شيئاً فشيئاً جزءاً منك.

كان الشاب يصغي إلى صوتها فيجده أجمل من حفيف سعف النخيل، ثم تابعت:

- منذ زمن طويل وأنا أجيء إلى هنا، قرب البئر لانتظارك، فلا تذكّرت ماضيَّ، ولا التزمت العادات التي يرغب بها الرجال أن تسلكها نساء الصحراء، منذ صغري كنتُ أحلم بأن تمنحني الصحراء يوماً ما أجمل هدية في حياتي، وهاهي ذي تمنحني الهدية، أنت.

أراد الشاب أن يمسك بيدها، لكن فاطمة كانت تمسك بعروتي

الجرّة. ثم أردفت:

- لقد حدّثتني عن أحلامك، عن الملك العجوز، عن الكنز، حدّثتني عن الإشارات، ذاك ما يجعلني لا أخشى شيئاً، لأن الإشارات هي التي قادتك إليَّ، وصرتُ جزءاً من حلمك ومن أسطورتك الشخصيّة، مثلما تقول باستمرار، ولهذا السبب بالذات، أريدك أن تتابع طريقك نحو ما جئت من أجله، إن كان يتوجّب عليك الانتظار حتى تنتهي الحرب فهذا عظيم، أما إذا كان عليك أن تسافر، فانطلق إذن نحو أسطورتك الشخصيّة، فإن الكثبان الرملية تتغير بفعل الرياح، لكن الصحراء تبقى دائماً نفسها، وهذا ما سيكون عليه حبنا، إنه قدرٌ مكتوب، ولو كنتُ حقاً أمثّل جزءاً من أسطورتك الشخصيّة فإنكَ ستعود يوماً ما.

شعر بالحزن عندما فارقها، كان يفكّر بالناس الذين عرفهم، فالرعاة كانوا يعانون كثيراً لإقناع زوجاتهم بالأسباب التي تفرض عليهم التجوال في الأرياف، لكن الحب يتطلّب البقاء قرب المحبوب. وفي الغد حدّث فاطمة عن كل هذه الأشياء، فقالت:

- الصحراء تأخذ منا رجالنا، ولا تعيدهم في بعض الأحيان، ينبغي علينا أن نعتاد على ذلك، وعندئذٍ نراهم في السحب التي تمرّ دون أن تمطر، وفي الماء الفيّاض الذي ينبع من الأرض، فهم ساعتها يشكّلون جزءاً من كل شيء ويصبحون روح الكون، البعض منهم يعود،

وحينذاك تفرح النساء الأخريات، لأن الرجال الذين ينتظرنهم يمكن أن يعودوا ذات يوم.

فيما مضي، كنتُ أرى تلك النسوة، وأحسدهن على سعادتهن، وقد صرت الآن مثلهن، وسيكون لي حبيب، أنتظر عودته، فأنا إحدى نساء الصحراء وأنا فخورة بذلك.

أريد لزوجي أيضاً أن يسير حرّاً كالريح التي تحرّك الكثبان، أريد أن أحظى برؤيته في السحب، وفي الماء.

ذهب الشاب للقاء الإنكليزي ليحدّثه عن فاطمة ، وفوجئ به وقد بني فرناً صغيراً بجانب خيمته، كان فرناً غريباً، وُضعت فوقه قارورة شفّافة، وكان الإنكليزي يلقم النار بالحطب، ويتأمل الصحراء.

عيناه كانتا تبدوان أكثر لمعاناً مما كانت عليه عندما كان يقضي كامل وقته غارقاً بين الكتب.

فبادر الإنكليزي قائلاً:

- هذه أولى مراحل العمل، عليّ أن أفصل الكبريت الشائب، وحتى أتوصّل إلى ذلك ينبغي عليّ ألا أخشى الإخفاق، لأن خوفي هو الذي منعني من اكتشاف هذا الإنجاز العظيم، ها أنذا الآن أبدأ ما كان يجب أن أقوم به منذ عشرات السنين، لكنني مع ذلك سعيد، لأنني لم أنتظر عشرين سنه أخرى.

وتابع إذكاء النار وهو يتأمل الصحراء، وبقي الشاب قربه بعض الوقت، حتى الساعة التي تلوّنت بها الصحراء بلون غروب الشمس الوردي، عندئذٍ شعر برغبة عارمة فى الذهاب إلى هناك، لعلّ بمقدور الصمت الإجابة على أسئلته.

مشى لبعض الوقت دون هدف، دون أن تغيب عن ناظريه نخلات الواحة، مصغياً إلى الريح، متحسساً الحصى تحت أقدامه، كان يجد بعض الأصداف، وكان يعلم أن هذه الصحراء كانت منذ عهد بعيد بحراً

واسعاً.

جلس على حجر كبيرة، وترك نفسه يسرح بالأفق الماثل أمامه، فلم يكن يستطيع أن يتصوّر الحب مجرّداً من فكرة التملّك، لكن فاطمة كانت واحدة من نساء الصحراء، وإذا كان ثمة شئ يستطيع مساعدته على الفهم ، فهو الصحراء فحسب.

مكث هكذا دون أن يفكّر بشيء، إلى أن شعر بشيء يتحرّك فوق رأسه، فنظر إلى السماء، فرأى صقرين يحلّقان عالياً في السماء.

راقب الطيرين الجارحين، والأشكال التي يرسمانها في طيرانهما، كانت في الظاهر خطوطاً غير منتظمة، لكنها مع ذلك كانت بالنسبة له ذات معنى، إلا أنه لم يستطع تحليل معناها، قرر أن يتابع حركات الطائرين بنظره علّه يكتشف رسالة ما، ربما يمكن للصحراء أن تفسّر له الحب دون تملّك.

شعر بالنعاس يتسلل إليه، لكن قلبه كان يأبى عليه ذلك، كان يشعر بحاجته للاستسلام .

قال في نفسه:

«ها أنذا أتوغل في صميم لغة الكون، فكل شيء في الأرض صار له معنى، حتى طيران الصقور نفسه».

لقد أحسَّ بالعرفان لهذا الحب الذي يحمله لامرأة، فقال لنفسه:

((عندما نحب ، يصبح للأشياء معنى أكبر)).

وفجأة انتفض أحد الصقرين لمهاجمة الآخر، في هذه اللحظة بالتحديد لاحت للشاب رؤيا مفاجئة وخاطفه: جماعة مسلّحة تجتاح الواحة، والسيوف كانت مسلولة، وانمّحت الرؤيا في الحال تاركة فيه انطباعاً حاداً. لقد سمع من قبل عن السراب، وكان قد رأي بعضها، إنها رغبات تتجسد على رمال الصحراء، ومع ذلك لم يكن يرغب بالتأكيد رؤية جيش يستولي على الواحة.

أراد أن ينسى هذه الرؤيا ويعود إلى تأمله، وهو يحاول من جديد أن يركّز على الصحراء الوردية وعلى الحجارة، لكن شيئاً ما في داخله كان يخطف السكينة من قلبه.

تذكّر قول العجوز: ((اتبع الإشارات دائماً)).

فكّر بفاطمة، ثم تذكّر الرؤيا التي تجلّت له، وحدس بأنها قريباً سوف تتحوّل إلى واقع، وبصعوبة استطاع أن يتغلّب على الضيق الذي يخنقه.

نهض ثانية وبدأ يمشي صوب أشجار النخيل، ومن جديد أدركَ لغة الأشياء الجديدة: أصبحت الصحراء الآن موطن الأمان، طالما أن الواحة قد غدت موطن الخطر.

كان الجمّال جالساً قرب إحدى النخيل، يرقب غروب الشمس، عندما رأى الشاب قادماً من وراء الكثبان، فبادر الشاب قائلاً:

- هناك جيش يتقدّم، فقد رأيت رؤيا.

أجاب الجمّال:

- الصحراء توحي إلى قلوب الناس بالكثير من الرؤى.

لكن الشاب حدّثه عن الصقرين، لقد كان يراقب طيرانهما، عندما غاص فجأة، في روح الكون.

لم يجب الجمّال بشيء لقد فهم ما يقوله الراعي، كان يعلم أن أي شيء على وجه الأرض يمكن له أن يحكي قصة الأشياء كلّها ،وعندما نفتح صفحة من كتاب، أو عندما نتفحصّ كفّ إنسان ما، أو نراقب طيران الطيور، أو ننظر في ورق اللعب، أو أي شيء آخر كائناً ما كان، فإن كل واحد منا سيستطيع اكتشاف تلك الرابطة بين كل ما هو حي.

وفي الحقيقة ليست الأشياء هي التي تكشف أي شئ بذاتها، وإنما هم البشر الذين يراقبون هذه الأشياء ويكتشفون الطريقة التي تمكّنهم من دخول روح الكون.

الصحراء مآهولة برجال يكسبون معيشتهم ، لأن باستطاعتهم اقتحام روح الكون بسهولة، وقد عُرفوا باسم «العرّافين»، وكان المسنّون والنساء يهابونهم، ولم يكن المحاربون ليستشيرونهم إلا فيما ندر، لأنه لا داعي للذهاب إلى المعركة عندما تعرف مسبقاً اللحظة التي تموت فيها.

كان المقاتلون يفضّلون نكهة القتال، وركوب المخاطر، ولمس المجهول، فالمستقبل قدر كتبه الله، وأيّاً كان هذا المكتوب، فإنه دائماً لخير الناس.

إذن، فالمحاربون يعيشون الحاضر فقط ، لأنه يعجّ بالمفاجآت، وعليهم أن يكونون متيقظّين للكثير من الأشياء: أين يوجد سيف العدو، أين فرسه ، وأين عليه أن يضرب ليتحاشى الموت.

لم يكن الجمّال مقاتلاً، و قد سبق وان استشار بعض العرّافين، الكثيرون منهم ذكروا أشياء حقيقية، وأخبره آخرون بأشياء خاطئة .

وذات يوم سأله أحدهم، وكان هو الأكبر سناً والأكثر هيبة، عن سرّ اهتمامه بمعرفة المستقبل.

أجاب الجمّال:

- كي أستطيع القيام بأشياء عدة، ولكي أحول دون حدوث ما لا أحب أن يحدث.

- عندئذٍ لن يكون هذا مستقبلك.

- لكن، ربما أريد معرفة المستقبل لأستعد لتلقي ما ينبغي أن يحدث.

أجاب العرّاف:

- لو كانت أموراً جيّدة، لحصلت على مفاجأة جميلة، ولو كانت سيئة فإنها ستسبب لك العذاب قبل وقوعها.

قال الجمّال:

- أريد أن أعرف المستقبل لأنني إنسان، والناس يعيشون تبعاً لمستقبلهم.

مكث العرّاف لحظة دون أن ينطق بحرف، وكان هذا العراف حاذقاً بلغة العيدان، التي يلقيها أرضاً، ويفسّر الطريقة التي توزّعت بها على الأرض، لكنّه في ذلك اليوم لم يستعمل العيدان، بل لفّها في قماش قطني، وأعادها إلى جيبه قائلاً:

- إنني أكسب معيشتي كعرّاف يتنبأ بمستقبل الناس، إنني أعرف علم العيدان، وأعرف كيفية استعمالها، كي أوغل في هذا الفضاء، حيث كل شيء كُتب مسبقاً، واستطيع فيها أن أقرأ الماضي، واكتشف ما نسيناه، وأفهم علامات الحاضر، وعندما يستشيرني الناس فإنني لا أقرأ مستقبلهم، أنا أتكهنه فقط ،لأن المستقبل ملك لله، وهو وحده يملك أن يكشف ستره في ظروف غير عاديه.

- ولكن كيف يمكنني التنبؤ بالمستقبل؟

- الفضل في ذلك يعود لعلامات الحاضر، فالسرّ يكمن في الحاضر. وإذا تنبّهت إلى حاضرك، بإمكانك جعله أفضل، وإن حسّنت الحاضر، فإن ما يعقبه يكون جيّداً، انسَ المستقبل وعش كل يوم من حياتك حسب تعاليم الشريعة، وثق بعناية الله بعباده، فكل يوم يحمل الخلود في طيّاته.

أراد الجمّال أن يستشف ما هي تلك الظروف الغير عادية التي يسمح الإله فيها بمعرفة المستقبل.

((عندما يكشفها الله بذاته، ونادرا ما يكشفها، وذلك لسبب واحد : انه مستقبل كتب لكي يتغير)).

حدث الجمال نفسه :

((لقد كشف الله المستقبل للفتى، لأنه أراد أن يغدو الفتى أداته)).

ثم قال للفتى:

- اذهب للقاء شيوخ القبائل، وحدّثهم عن المقاتلين الذين يقتربون.

- سوف يهزءون بى.

- إنهم من أبناء الصحراء، وهم معتادون على الإشارات.

- إذاً، فهم يعلمون ذلك مسبقاً.

- ليس هذا همّهم، فهم يعتقدون بأنه لو أراد الله لهم أن يعلموا بشيء، فإن الله سيعمل على ذلك وسيأتي من يخبرهم به، وهذا ما حدث مراراً، أما اليوم فإنك أنت هذا الرسول.

فكّر الشاب بفاطمة، وقرّر الذهاب للقاء شيوخ القبائل.

توجه الفتى إلى الخيمة البيضاء الكبيرة المقامة في مركز الواحة، وقال للحارس الذي يقف على بابها:

- إنني أحمل رسالة من الصحراء، وأريد التحدّث إلى الشيوخ.

لم يجب الحارس، دخل الخيمة، فمكث فيها طويلاً ثم خرج بصحبة شاب أعرابي يرتدي ثياباً بيضاء ويتقلّد الذهب، وروى له الشاب ما رآه، فطلب منه الأعرابي أن ينتظر قليلاً ثم عاد إلى خيمته.

هبط الليل، عرب وتجار كثر، دخلوا وخرجوا، وبدأت أضواء الخيام تنطفئ تدريجيا، وأضحت الواحة خلال لحظات صامتة كصمت الصحراء، لم يبقَ مشتعلاً إلا ضوء الخيمة الكبيرة، وبمرور الوقت لم يتوقف الشاب عن التفكير بفاطمة، دون أن يفهم جيداً ما أسفرت عنه المحادثة التي تمّت بعد الظهر.

أخيراً، وبعد ساعات عديدة من الانتظار، أذن الحارس له بالدخول.

ما رآه جعله يشرد في ذهول شديد، فلم يكن يتخيّل قط وجود خيمة كهذه في وسط الصحراء، كانت أرضها مغطاة بأجمل السجاد الذي لم يسبق له أن مشى عليه، من الأعلى ثريات تتدلى، شمعدانات مذهّبة ومنقوشة تحمل شموعاً مشتعلة، وشيوخ العشائر يجلسون في الخيمة على شكل نصف حلقة، متكئين على أرائك حريرية مطرّزة بأبهة، خدم يأتون ويروحون حاملين أطباقاً عليها ما لذ وطاب من الطعام ويقدّمون الشاي، وآخرون يسهرون على إبقاء جمرات النراجيل مشتعلة، ورائحة تبغ طيبة تعطّر الجو. لكنه فهم في الحال أيّهم الأعلى قدراً من بينهم، إنه عربي يرتدي البياض ويضع الذهب، وكان يجلس في مركز نصف

الحلقة، وبجانبه يجلس الشاب الذي تحدّث معه منذ وقت قصير.

سأل احد الشيوخ وهو ينظر إليه:

- من هو الغريب الذي يتحدّث عن رسالة؟

- إنه أنا.

وروى لهم ما رآه.

قال شيخ آخر:

- لماذا تقول الصحراء هذه الأشياء لرجل قادم من مكان آخر، وهي تعلم أننا نقيم هنا منذ أجيال عديدة؟

- لأن عينيّ لم تعتادا بعد على الصحراء، بحيث أستطيع أن أرى ما لا تستطيع العيون المعتادة عليها أن تراه.

((ولأنني أعرف أيضا روح الكون))، هذا ما أسر به الشاب إلى نفسه، من دون أن يقوله، لأن العرب لا يعتقدون بمثل هذه الأشياء.

قال شيخ ثالث:

- الواحة أرض محايدة، ولن يهاجمها أحد.

فرد عليه الفتى:

- لقد رويت ما رأيته، وإذا كنتم لا تصدقوني، فلا تفعلوا شيئاً.

أطبق الصمت على الخيمة، ثم أعقبته مشاورة حادة بين شيوخ

العشائر، كانوا يتكلّمون بلغة عربية محلية لم يفهمها الشاب، لكنه عندما تظاهر بأنه يريد الخروج، طلب منه الحارس أن يبقى.

بدأ يكابد بعض الخوف، فالإشارات كانت تنبئه بأن شيئاً ما لا يسير على ما يرام وندم لأنه أخبر الجمّال عن هذا الأمر.

فجأة، ابتسم الشيخ العجوز الذي كان يحتل مركز الخيمة ابتسامة رقيقه، فاطمأن الشاب.

لم يكن الشيخ العجوز قد ساهم في النقاش، ولم ينطق بكلمة، لكن الشاب كان معتاداً على اللغة الكونية، واستطاع أن يشعر برعشة سلام تجوب الخيمة، حدسه قال بأنه قد فعل خيراً بمجيئه.

انتهى النقاش، وصمت الجميع لينصتوا إلى الشيخ العجوز، وقد التفت إلى هذا الغريب، وقد بدت تعبيرات وجهه صارمة ومتحفظة.

- منذ ألفي عام، وفي بلاد بعيدة، أُلقي برجل في بئر، وبِيع كعبد، كان يؤمن بالأحلام، وقد اشتراه تجار من عندنا، واصطحبوه إلى مصر- وكلنا يعلم أن من يعتقد بالأحلام يعرف تفسيرها.

قال في نفسه وهو يتذكر المرأة الغجرية:

((ولكنه لا يستطيع تحقيقها)).

واستأنف الشيخ:

- وبفضل ما راود فرعون مصر من أحلام تراءت فيها البقرات

العجاف، والبقرات السمان، فقد استطاع ذلك الرجل إنقاذ مصر من المجاعة، وكان يُدعى (يوسف)، وكان مثلك غريباً في أرضٍ غريبة، وكان تقريباً في نفس عمرك.

امتد الصمت، وبقيت نظرة العجوز صارمة. ثم قال مرة أخرى:

- نحن نتّبع التقاليد دائماً ، فالتقاليد قد أنقذت مصر من المجاعة آنذاك، وجعلت من شعبها أكثر الشعوب ثراءً، التقاليد تعلّم كيف ينبغي على الرجال عبور الصحراء، وتزويج بناتهم، التقاليد تقول أن الواحة تمثّل أرضاً محايدة لأن المعسكرين يمتلكان واحات وهي ضعيفة أمام العدوان.

لم ينبس احد ببنت شفه عندما كان الرجل العجوز يتكلّم.

- لكن التقاليد أيضاً تدعونا للوثوق برسائل الصحراء، وكل ما نعرفه، فإنما علّمتنا الصحراء إياه.

أشار بإصبعه، فهبّ كل الأعراب واقفين، فقد انتهى الاجتماع، وأطفئت النراجيل، وعدّل الحرّاس وضعيتهم.

تهيأ الشاب لمغادرة المكان، لكن العجوز استأنف الكلام:

- غداً، سنفسخ الاتفاق القاضي بمنع حمل السلاح في الواحة، وسننتظر العدو أثناء النهار، وعندما تميل الشمس للغروب، فإن الرجال سيعيدون لي أسلحتهم، ومقابل كل عشرة قتلى من العدو

ستلقى قطعة من الذهب. وعلى كل حال، لا يمكن للأسلحة أن تخرج إلا إلى المعركة، إنها متقلّبة المزاج كالصحراء، وإن أخرجناها من أجل لاشيء فبإمكانها رفض إطلاق النار، وإن لم تُستعمل أياً منها غداً، فإن واحدة على الأقل ستُستخدم ضدّك أنت.

عندما غادر الخيمة لم تكن الواحة مضاءة إلا بنور القمر، وكان ينبغي عليه أن يسير عشرين دقيقة كي يصل إلى خيمته، فسار في دربه.

كان يقاسي ألماً شديداً مما حصل، شعر بنفسه مغموراً بروح الكون، وربما سيدفع حياته ثمناً لذلك، إنه رهان كبير، لكن رهانه كان كبيراً منذ اليوم الذي باع فيه نعاجه لكي يتبع أسطورته الشخصية.

ومثلما قال الجمّال: ((الميتة واحدة سواء أكانت غداً، أو في يوم آخر، وما وُجد أيُّ يوم إلا لنعيشه أو لنخرج فيه من الدنيا، وكل شيء فى الوجود مبني على كلمة واحدة: ((مكتوب)).

تابع مسيره صامتاً، غير آسف على شيء، وإن كان سيفترض أن يموت غداً، فليس هذا إلا لأن الله لا يريد تغيير المستقبل، ولكنه سيموت بعد أن اجتاز المضيق، وعمل في متجر الأواني الزجاجية، وعرف الصحراء، وعيون فاطمة. فمنذ أن غادر بلده وهو يعيش أياماً حافلة، وكان هذا حلمه منذ زمن طويل، وإن قُدّر له أن يموت غداً، فلا بأس، لأن ما رأته عيناه من الدنيا يفوق ما رأته عيون الكثيرين من الرعاة الآخرين، وهو فخور بذلك.

فجأة، رنَّ في أذنه صوت أشبه بالدوى، وسقط أرضاً، مـدفوعاً بهبـة ريح شديدة العنف، واجتاحت المكان سحابة من الغبـار غطّـت تقريبـاً ضوء القمر، وشب أمامه حصان ضخم ذو صهيل مرعب.

استطاع بصعوبة أن يميّز ما يجري ، ولكن عندما تبدد الغبـار أحـس برعب فظيع لم يسبق إطلاقاً أن أحسّ بمثله، فقد برز أمامه رجل يمتطي صهوة الحصان، ويرتدي ثياباً سوداء، يعلـون كتفـه صـقر، وقـد غطّـى رأسه بعمامة ولثام، يحجب كل وجهـه ماعـدا عينيـه، يبـدو أنـه رسـول الصحراء، وله حضور لا يرتقي إليه أحد في العالم.

وامتشق هذا الفارس الغريب سيفاً كبيراً ذا نصل مقوّس، كان معلّقاً بسرج حصانه، إنه من الفولاذ ويتألّق تحت ضوء القمر.

سأل بصوت قوي، رددت صداه، كما بدا، الخمسين ألف نخله.

- من الذي تجرّأ علي أن يفسّر طيران الصقرين؟

- أنا من تجرأ.

قالها الشاب، وقد تراثي لـه في الحـال تمثـال القـدّيس جـاك، داحـراً الأشرار تحت سنابك حصانه الأبيض، إنه الشيء نفسه تماماً، ما عـدا أن الوضع الآن معكوس !

وأحنى رأسه مستعداً لضربة السيف.

- العديد من الأرواح سيُكتب لها النجاة، لأنك تخطيت روح الكون.

لم يخفض السلاح بسرعة، بل نزلت يده على مهل، ورأس السلاح الذي لامس جبهة الشاب كان حاداً، فسالت منه قطرة من الدماء.

كان الفارس والشاب كلٌّ في مكانه لا يتزحزح، وحتى فكرة الهروب لم تخطر بباله، جذل غريب استحوذ على فؤاده، سيموت في سبيل أسطورته الشخصية، ومن أجل فاطمة، والإشارات في النهاية لم تخطئ، فالعدو هنا، وليس عليه أن يأبه بالموت طالما أن روح الكون حاضرة، فبعد قليل سيصبح جزءاً منها، وغداً سيصبح العدو جزءاً منها.

اكتفي الغريب بتثبيت رأس السيف على جبهته.

- لماذا فسّرت طيران الصقرين؟ .

- فسّرت فقط ما كانت تريد الطيور أن تحكيه، فهي تريد أن تنقذ الواحة وأنت وجماعتك ستموتون، فرجال الواحة أكثر عدداً منكم.

كان طرف السيف الحاد ما يزال موضوعاً على جبهته.

- من أنت كي تغيّر القدر الذي خطته يد الله؟

- خلق الله الجيوش، وخلق الطيور أيضاً، والله هو الذي أطلعني على لغة الطيور، فكل شيء قد كُتب بيد واحدة.

قالها الفتى، متذكّراً ما قاله الجمّال.

أخيراً، رفع الفارس سيفه، وأحس الشاب بالانفراج، غير أنه لم يكن يستطيع الهرب.

- حذار من التنبؤات، فعندما تكون الأمـور مكتوبـة، فلـيس هنـاك مجال لتلافيها.

- لقد رأيت جيشاً، ولم أرَ نهاية المعركة.

بدا الفارس مقتنعاً بالإجابة، لكنه بقي محتفظاً بسيفه في يده، ثم سأله عن سبب وجوده في هذه الأرض الغريبة عنه:

- أبحث عن أسطورتي الشخصية، وهذا شيء لن تستطيع فهمه.

أعاد الفارس سيفه إلى غمده، وأطلق الصقر الجاثم على كتفه صرخة غريبة، فبدأ الشاب يستريح.

- كان عليَّ أن أمتحن شجاعتك، فالشجاعة هي الفضيلة الأولى لمـن يبحث عن اللغة الكونية.

دُهش الشاب، فهذا الرجل يتحدّث عن أشياء لا يعرفها إلا القليـل من الناس.

- يجب عدم الاستسلام إطلاقاً، حتى لو بلغ الإنسان في معرفتـه إلى مدى بعيد، فعليه أن يحـب الصـحراء، ولكـن عليـه ألا يثـق بهـا تمامـاً، فالصحراء هي محك الرجال: إنها تمتحن الإنسـان مـن خـلال خطواتـه وتقتل من ينصرف للعبث.

كانت كلماته تلك تذكّره بكلمات الملك العجوز.

ثم أضاف الفارس:

- إن جاء المقـاتلون، وإن بقـي رأسـك فـوق كتفيـك، فغـداً وبعـد غروب الشمس تعالَ لأراك.

واليد التي كانت تقبض بالسيف صار فيها سوط، ثم شب الحصـان من جديد، مثيراً سحابة من الغبار.

وصاح الفتي بينما كان الفارس يبتعد:

- أين تسكن ؟

ودلّت اليد الممسكة بالسوط على جهة الجنوب.

وهكذا كان أول لقاء بين الشاب والخيميائي !!!

صباح اليوم التالي، كان هناك ألفا رجل مدججين بالسلاح وسط أشجار نخيل الفيّوم، وقبل أن تبلغ الشمس أوج السماء، ظهر عند الأفق خمسمائة محارب.

دخل الفرسان الواحة من الشمال، كانت الحملة سِلميّة، لكن الأسلحة كانت مخبّأة تحت برانسهم البيضاء، وعندما وصلوا بالقرب من الخيمة الكبيرة المنتصبة في مركز الواحة، أشهروا سيوفهم المعقوفة، وبنادقهم، وهاجموا خيمة خالية.

طوّق رجال الواحة فرسان الصحراء، وفي غضون نصف ساعة، كانت هناك أربعمائة وتسعة وتسعين جثة مبعثرة على الأرض، كان الأطفال في الجهة الأخرى من بستان النخيل، ولم يروا شيئاً، والنساء كنّ في الخيام يبتهلن من أجل أزواجهن، وهنّ لم يرين شيئاً أيضاً.

وعلى الرغم من كثرة الجثث الهامدة في كل مكان، فإن الواحة بدت وكأنها تعيش يوماً عادياً.

محارب واحد فقط نجا من الموت في الموقعة، هو ذاك الذي كان يقود المقتحمين، وقد اقتيد في المساء ليمثل أمام شيوخ القبائل الذين سألوه عن سبب انتهاكه لحرمة التقاليد.

أجاب، أن رجاله كانوا يقاسون الجوع والعطش، منهكين من المعركة التي طال أمدها، فعزموا على الاستيلاء على واحة ما، كي

يستطيعوا استئناف القتال.

أعرب شيخ الواحة عن حزنه تجاه هؤلاء المحاربين الذين كان ينبغي عليهم احترام التقاليد في أي ظرف كان، فالشيء الوحيد الذي يتغير في الصحراء هو الكثبان عندما تهب الريح.

ثم حكم الشيخ على المحارب بميتة مهينه، فبدل أن يُقتل بالسلاح الأبيض، أو بطلقة من بندقية، فإنه سيموت شنقاً، معلقاً بجذع نخلة يابسة، وستبقى جثّته تتأرجح في مهب ريح الصحراء.

استدعى شيخ القبيلة الشاب الغريب، وأعطاه خمسين قطعة ذهبيّة، ثم ذكر مرة أخري سيرة يوسف عليه السلام في مصر وطلب من الشاب أن يصبح اعتباراً من الآن مستشار القبيلة.

عندما غابت الشمس، وبدأت أولى النجوم بالظهور- لم تكن تلمع كثيراً لأن القمر كان بدراً- ذهب الشاب نحو الجنوب ولم يكن هناك إلا خيمة واحدة، وحسب اعتقاد بعض العرب الذين كانوا يمرّون من هناك ، فإن المكان مسكون بالجن، لكنّه جلس وانتظر طويلاً.

ظهر الخيميائي بينما كان القمر ما يزال عالياً في السماء حاملاً على كتفه صقرين ميتين.

قال الشاب:

- ها أنذا.

- كان ينبغي عليك أن لا تكون هنا، أم أن أسطورتك الشخصيّة هي التي شاءت أن تأتي إلى هنا؟

- هناك حرب بين العشائر وليس من الممكن عبور الصحراء.

نزل الخيميائي عن حصانه، وأشار إلى الشاب أن يدخل معه خيمته، كانت مشابهة لكل الخيام التي تمكّن من رؤيتها في الواحة، باستثناء الخيمة المركزية الكبيرة التي تُذِكر فخامتها بحكايات الجن.

جال بنظره باحثاً عن أجهزة وعن أفران خيمياء، لكنه لم ير شيئاً من ذلك، كان هناك فقط أكداس من الكتب، وموقد صغير لتحضير الطعام، وسجاجيد مزخرفة برسوم غريبة.

- أجلس سأحضر الشاي، وسوف نأكل معاً هذين الصقرين.

تساءل الشاب، إن كان هذان الصقران، هما نفسهما اللذان رآهما عشيّة البارحة، لكنه لم يقل شيئاً.

أشعل الخيميائي النار، وبعد قليل عبقت في الخيمة رائحة لحم شهيّة، كانت ألطف بكثير من رائحة النرجيلة.

سأل الشاب :

- لماذا كنت تريد رؤيتي؟

أجاب الخيميائي:

- بسبب الإشارات، فالريح قد أخبرتني بأنك ستأتي وبأنك ستحتاج للمساعدة.

- لا ليس أنا، فالإنكليزي هو الذي يبحث عنك.

- سينبغي عليه أن يجد أشياء أخرى قبل أن يراني، لكنه على الطريق الصحيحة، فقد بدأ يتأمل الصحراء.

- وأنا؟

قال الخيميائي مردداً كلمات الملك العجوز:

((عندما يريد الإنسان شيئاً، فإن الكون كلّه يتضافر ليسمح له بتحقيق حلمه)).

فهـم الشـاب، أن إنسـاناً آخـر ينتظـره، كـي يقـوده إلى أسـطورته الشخصيّة.

– ستعلّمني إذن؟

– كلا، فأنت تعرف مسبقاً ما عليك معرفته، وبكل بساطة سأرشدك فقط إلى الدرب التي تقودك إلى كنزك.

كرّر الشاب:

–هناك الحرب بين العشائر.

– لكنني أعرف الصحراء.

– لقد وجدتُ كنزي، لدي جمل، والمـال الـذي كسـبته مـن متجـر الأواني الزجاجية، والقطع الذهبيّة الخمسـون، فأنـا أسـتطيع أن أكـون رجلا ثرياً.

– لاشيء من كل هذا يوجد قرب الأهرامات.

– لديَّ فاطمة، إنها أعظم كنز استطعت الحصول عليه.

– هي أيضاً ليست قرب الأهرامات.

أكلا الصقرين بصمت، لكن الخيميائي كان يخيفـه قلـيلاً. ثـم ذهبـا ليجلسا خارج الخيمـة، وبـدآ يتـأملاّن نـور القمـر الـذي يغمـر ضـوء النجوم.

قال الخيميائي ملاحظاً أن الشاب أصبح مرحاً أكثر فأكثر:

- اشرب وتمتع بجزء من وقتك، واسترح دائماً كما يستريح مقاتل قبل ذهابه إلى المعركة، لكن لا تنسَ أن فؤادكَ يوجد حيث يوجد كنزك، ولابد لكنزك أن يُكتشف، حتى يكون هناك معنى لكل ما اكتشفته في طريقك.

ثم أردف الخيميائي:

- بِعْ جملكَ غداً، واشترِ حصاناً، فالجمال غدّارة، لأنها تقطع آلاف الخطوات دون أن تدعك ترى أية دلالة على أنها متعبة، وفجأة تخرّ على ركبها وتموت، أما الخيول فإنها تتعب تدريجياً وستعرف دائماً الحدّ الذي يمكنك أن تطالبها به، واللحظة التي ستموت فيها.

وصل الفتى أمام خيمة الخيميائي، ممتطياً حصاناً، وانتظر لحظة حتى ظهر له راكباً بدوره حصاناً، والصقر جاثم على كتفه.

قال الخيميائي:

- أرني الحياة في الصحراء، فوحده الذي يستطيع أن يجد فيها الحياة يستطيع أن يكتشف فيها الكنوز.

مضيا في طريقهما عبر الرمال، وضوء القمر يغمرهما.

ردد الفتي في سره:

-لستُ أدري إن كنت سأنجح في إيجاد ثمة حياة في الصحراء، فأنا

لا أعرف الصحراء بعد.

أراد أن يلتفت كي يعلن للخيميائي عـن فكرتـه، لكنـه كـان يخافـه، وهاهما قد وصلا الآن إلى المكان الممتلئ بالحصى حيث كان قد رأى فيه الصقرين في السماء.

الآن، كل شيء كان يلّفه الصمت والريح.

قال الشاب:

- لن أتمكن من لقاء الحياة في الصحراء، فأنـا أعلـم أنهـا موجـودة، لكنني لا استطيع التوصل إليها.

أجاب الخيميائي:

- الحياة تجذب الحياة .

أدرك الشاب ما يرمي إليه الخيميائي، وفي الحال أرخى عنان حصانه الذي أخذ يعدو وسط الحجارة والرمال، كان الخيميائي يتبعه، واستمر حصان الشاب يسير هكذا لمدة نصف ساعة.

لم يكن الرجلان يستطيعان أن يميّزا نخيل الواحة، لم يكـن هنـاك إلا صفاء السماء العجيب، يجعل الصخور تلمع كلمعان الفضّة، وفجأة وفي مكان لم يأت إليه مطلقاً من قبل أحس الشاب أن مطيته قد توقفت.

قال الفتى للخيميائي:

- هنا توجد الحياة، فإنني لا أعرف لغة الصحراء، لكن حصاني يعرف لغة الحياة.

تسمرّا في الأرض، لم يقل الخيميائي شيئاً، بل أخذ في تأمّل الحجارة وهو يتقدّم ببطء.

توقف فجأة وانحنى بدراية فائقة، فإن جُحراً كان هناك في الأرض بين الأحجار، أدخل الخيميائي يده فيه، ثم مدّ ذراعه كلّها حتى الكتف، شيء ما تحرّك هناك في الداخل، وأغمض الخيميائي عيناه لتشهدا على الجهد الذي يبذله، يبدو أن اليد كانت في عراكٍ مع ما يوجد داخل الجحر.

وثب الخيميائي وثبة أخافت صاحبه وقد سحب ذراعه ونهض واقفاً، كانت يده تمسك بأفعى من ذيلها.

قفز الشاب إلى الخلف، حيث كانت الأفعى تتخبط بجنون، وتُصدر فحيحاً يقطع صمت الصحراء، إنه ثعبان كوبرا يمكن لسمّه أن يقتل رجلاً في بضعة دقائق.

صاح به الشاب:

- حذار من السّم.

لكن الخيميائي الذي أدخل يده في الجحر لا بد أن يكون قد لُسع، على الرغم من ذلك كانت هيئته مشرقة.

الخيميائي رجل طاعنٌ في السن وهو يبلغ من العمر مائتي عام كما اخبره الانكليزي، ولابد أنه يعرف كيف يتعامل مع ثعابين الصحراء.

رأى الشاب صاحبه يعود إلى حصانه، ويتناول سيفه الهلالي الكبير، ورسم به دائرة على الأرض، ثم وضع الأفعى وسط هذه الدائرة، وفي الحال شلّت حركتها.

قال الخيميائي:

- لا تقلق، فهي لن تخرج من هنا أبداً، وقد اكتشفت الحياة في الصحراء، إنها العلامة التي أحتاجها.

- لِمَ؟ هل لذلك أهميّة كبيرة؟ .

- نعم ، لأن الأهرامات تقع وسط الصحراء.

لم يكن الشاب يريد أن يسمع حديثاً عن الأهرامات، فؤاده كان مُجهَداً وحزيناً منذ مساء الأمس، وسعيه في طلب الكنز يعني في الحقيقة تخليه عن فاطمة.

قال الخيميائي:

- سأقودك عبر الصحراء.

أجاب الفتى:

- أريد البقاء في الواحة، لقد التقيت بفاطمة، وهي أغلى من أي كنز.

- فاطمة بنت الصحراء، فهي تعلم أن على الرجال الرحيل كي يعودوا. هي وجدت كنزها الذي هو أنت، وهي تنتظر منك أن تجد ما تبحث عنه.

- وإن قررتُ البقاء؟

- «ستكون مستشار الواحة، وستملك من الذهب ما يكفي لشرائك عدد جيد من الأغنام والجمال وستتزوج فاطمة، وستعيش سعيداً في السنة الأولى، ستتعلم حب الصحراء، وستعرف كل نخلة من أشجار نخيلها الخمسين ألفاً، ستدرك كيف تنمو، وسوف تريك عالماً لا يتوقف أبداً عن التغيير، وستصبح خبيراً في تحليل الإشارات، لأن الصحراء أعظم معلّم بين المعلّمين.

«في السنة الثانية، ستتذكر وجود الكنز، والإشارات ستحدّثك عنه بإلحاح، وستحاول ألا تهتم بذلك، وستسخّر معارفك لخير الواحة وساكنيها فقط، وسيكون شيوخ القبائل في غاية الامتنان لك، وجِمالك ستجلب لك الغنى والسلطة.

«وفي السنة الثالثة، ستستمر الإشارات في التحدّث عن الكنز، وعن أسطورتك الشخصيّة، ستقضي الليالي هائماً على وجهك في الواحة، وستصبح فاطمة حزينة لأن مسيرتك انقطعت بسببها، لكنها ستستمر في حبها لك وستقاسمان هذا الحب، ستتذكر أنها لم تطالبك بالبقاء، لأنها امرأة من الصحراء، تُحسن انتظار عودة زوجها، لن تكرهها،

لكنك ستمشي الليالي في رمال الصحراء، وسط أشجار النخيل، وأنت تفكر: ربما أنك كنت تستطيع متابعة طريقك، مُعتمداً أكثر على حبك لفاطمة، لأن ما سيجعلك تبقى في الواحة هو فقط خوفك من عدم تمكّنك من الرجوع إليها أبداً، وعندما تصل إلى هذا الحدّ فإن الإشارات ستبيّن لك أن كنزك قد توارى إلى الأبد.

((في السنة الرابعة، ستتخلى عنك الإشارات، لأنك لم ترد الإصغاء إليها وسيفهم ذلك شيوخ القبائل وسوف تُخلع من عملك كمستشار، وستصبح عندئذٍ تاجراً ثريّاً، يملك عدداً من الجِمال، ووفرة من البضائع، لكن ستقضي ما بقي من أيامك هائماً وسط أشجار النخيل والصحراء، وأنت تعرف أنك لم تكمل أسطورتك الشخصيّة، ولن تعرف في مطلق الأحوال، أن الحب لا يمنع رجلا من متابعة أسطورته الشخصية. لكن، إذا حصل ذلك، فلأن هذا الحب ليس هو الحب الحقيقي الذي يتكلم لغة العالم)).

محي الخيميائي الدائرة التي خطّها على الرمل، وثعبان الكوبرا هرب بسرعة ليختفي بين الحجارة.

كان الفتى يتخيّل تاجر الأواني الزجاجية الذي طالما أراد الذهاب إلى مكة، والانكليزي الذي يبحث جاهداً عن الخيميائي، وامرأة تثق بالصحراء التي ساقت إليها الإنسان الذي أحبه قلبها.

امتطيا حصانيهما، وفي هذا المرّة فإن الشاب هو الذي تَبِع الخيميائي.

كانت الريح تحمل ضجيج الواحة، وكان الشاب يحاول التعرّف على صوت فاطمة، ففي ذلك اليوم لم يتمكّن من الذهاب إلى البئر بسبب المعركة. لكن في تلك الليلة، وبينما كان يشاهد الثعبان داخل الدائرة، فإن الفارس الغريب مع صقره الذي يحط على كتفه، قد تكلّم عن الحب والكنوز وعن نساء الصحراء وعن أسطورته الشخصيّة.

قال الشاب:

- سأذهب معك.

وأحس فوراً بالأمان يستقر في داخله.

- سننطلق غداً قبل شروق الشمس.

كانت هذه هي إجابة الخيميائي الوحيدة.

لم يستطع الشاب أن ينام في تلك الليلة، فقبل الفجر بساعتين كان قد أيقظ وحداً من الفتيان الذين في الخيمة، وطلب منه أن يرشده إلى مكان سكنى فاطمة.

خرج الاثنان وذهبا إلى هناك.

ومقابل ذلك أعطى الشاب لدليله ما يكفي لأن يشتري له نعجة، ثم توسل إليه أن يبحث عن خيمتها، وأن يوقظها، ويخبرها بأنه ينتظرها في الخارج، ونفذّ الفتى العربي مهمّته، فأعطاه الشاب ما يكفي لشراء نعجة أخرى.

ثم طلب من الفتى الذي عاد وهو يشعر بالسعادة لمساعدته مستشار الواحة، وما حصل عليه من مال يكفي لشراء نعجتين أن ينصرف ويتركهما بمفردهما.

ظهرت فاطمة على باب الخيمة، فراحا يتمشيّان معاً وسط أشجار النخيل، كان يعلم أن هذا مُخالف للتقاليد التي يقدّر أهميّتها في هذه اللحظة، وقال:

- سأرحل وأريد أن تعلمي أنني سأعود، أنا أحبك لأن. ..

قاطعته فاطمة:

- لا تقل شيئاً، إننا نحب لأننا نحب، لا يوجد سبب آخر كي نحب.

مع ذلك فقد استأنف:

- أحبكِ لأنني رأيت حلماً، ثم التقيتُ ملكاً، بعت الأواني الزجاجية، عبرت الصحراء، ثم تقاتلت العشائر، وجئت قرب بئر لأعلم أين يسكن خيميائي، أحبك لأن الكون كلّه تضافر ليوصلني إليكِ.

تعانقا، وكانت تلك المرة الأولى التي يتلامس فيها جسداهما.

قال الشاب أيضاً:

- سأعود .

- من قبل، عندما كنت أنظر إلى الصحراء، فقد كنت أنظر إليها بشوق، أما الآن فسوف يستحيل هذا الشوق إلى أمل، فقد سافر والدي ذات يوم، لكنه عاد إلى أمي، وما يزال يعود في كل مرة يسافر فيها.

لم يقولا شيئاً بعد، وإنما مشيا قليلاً بين أشجار النخيل ثم أوصلها حتى مدخل خيمتها.

قال لها، وقد لاحظ أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع.

- سأعود مثلما عاد أبوكِ إلى أمكِ، فلم تبكين؟

أجابت وهي تخفي وجهها:

- صحيح أنني بنت الصحراء، لكنني امرأة قبل كل شيء.

ثم عـادت فاطمـة إلى خيمتهـا، بينـما كانـت الشـمس تشرـف عـلى الشروق، وعنـد مطلـع النهـار سـتخرج لتفعـل مـا كانـت تفعلـه منـذ سنوات، لكن كل شيء قد تغيّر، فالشاب لم يعد في الواحة.

والواحة فقدت ذلك المعنى الذي كانـت تنطـوي عليـه حتـى ذلـك الحين، لن تصبح بعد الآن تلك البقعة الكبيرة ذات الخمسـين ألفـاً مـن أشجار النخيل، وذات الثلاثمائة بئراً، والتي كـان يبـتهج الحجـيج عنـد الوصول إليها بعد سفر طويل.

واعتباراً من هذا اليوم لن تكون الواحة سوى مكانٍ خاوٍ، منـذ الآن ستكون الصحراء أكثر أهمية من الواحة، وستقضي وقتها تراقب السماء، متسائلة أي نجم سيكون دليـل الشـاب في بحثـه عـن كنـزه، ولسـوف ترسل له قبلاتها عبر الأثير، آملة أن تلامس وجهه وتخبره بأنها على قيـد الحياة، وأنها بانتظاره، كامرأة تنتظر رجلاً جسوراً يتابع طريقه بحثاً عن الكنوز والأحلام.

منذ ذلك اليوم، لم تعد الصحراء تعني لها إلا شيئاً واحداً:

الأمل بعودته ثانيةً.

امتطى كل منهما صهوة جواده ، وانطلقا في الصحراء ، ثـم بـادره الخيميائي قائلاً:

- لا تفكّر أبدا بمن تركت وراءك، كل شيء منقوش في روح الكـون وسيبقى فيها إلى الأبد.

قال الشاب الذي بدأ يألف صمت الصحراء من جديد:

- الرجال لا يحلمون بالعودة أكثر مما يحلمون بالرحيل.

- إن كان ما وجدته يتكوّن من المادة النقيّة فإنـه لـن يفسـد مطلقـاً، ولسوف تستطيع العودة إليه يومـاً، وإذا لم يكـن سـوي ومضـة مؤقتـة، كانفجار نجم، فإنك لن تجد شيئاً عند عودتك، ولكنك تكون قد رأيت ضوءاً يومض، وهذا وحده يستحق أن يُعاش.

كان الرجل يتحدّث بلغة الخيمياء، لكن رفيق دربه فهم بأنـه يلمّـح إلى فاطمة.

لقد كان من الصعب عدم التفكـير بمـن خلـف وراءه، فالصـحراء ذات الشكل الواحد في كل مكـان لا تتوقـف عـن الاكتنـاز بـالأحلام، والشاب مازال يرى أشجار النخيل والآبار، ووجه محبوبته، كـان يـرى الإنكليزي ومختبره، والجمّال الذي كان معلّماً وهو لا يعلم ذلك.

وردد في سره:

((لعل الخيميائي لم يحب امرأة قط في حياته)).

كان الخيميائي يسير في المقدّمة، وعلى كتفه الصقر، إنه يعرف لغة الصحراء، فعندما كانا يتوقفان كان الصقر يفارق كتف الخيميائي ويطير للبحث عن الغذاء، وقد أحضر في اليوم الأول أرنباً بريّاً وفي اليوم التالي طائرين.

في المساء مدَّا أغطيتهما على الأرض، لكنهما لم يشعلا النار. كانت ليالي الصحراء باردة، وظلمتها تشتد أكثر كلما أخذ القمر يتناقص في قبة السماء.

خلال أسبوع بكامله، تقدّما بصمت، لم يتحدّثا إلا عن الاحتياطات التي صارت حتمية لتلافي الوقوع في خضم المعارك الدائرة، فحرب العشائر كانت مستمرة، والريح كانت تحمل أحياناً رائحة الدماء النقيّة، فلعلّ معركة قد نشبّت في هذه النواحي، والريح مازالت تذكر الشاب بلغة الإشارات المستعدة دوماً أن تكشف له مالا تستطيع عيناه أن تراه.

في مساء اليوم السابع من السفر، قرر الخيميائي أن يخيّم في العراء، أبكر من المعتاد.

انطلق الصقر باحثاً عن فريسة، فتناول الخيميائي قربة من الماء وقدّمها إلى الشاب قائلاً:

- ها أنت ذا ستصل قريباً إلى نهاية رحلتك، لقد تتبّعت أسطورتك الشخصيّة، وأنا أهنئك.

- لكنك قدتني دون أن تقول كلمة، لقد ظننت أنك ستعلّمني

علمك كلّه، فمنذ بعض الوقت ألفيت نفسي في الصحراء، بصحبة رجل كان بحوزته كتب في الخيمياء لكنني لم أستطع أن أتعلّم منه شيئاً.

أجاب الخيميائي:

- ليس هناك إلا طريقة واحدة للتعلّم: «التعلّم بواسطة العمل»، إنه السفر من يعلّمك ما كنتَ بحاجة إلى معرفته، ولا ينقصك إلا شيء واحد.

أراد الشاب أن يعرف ما هو، لكن الخيميائي حافظ على نظره محدّقاً في الأفق يراقب عودة الصقر.

- لماذا يدعونك بالخيميائي؟

- لأنني كذلك.

- وما الذي جعل الخيميائيين يخفقون في بحثهم عن الذهب؟

- لقد اكتفوا بالبحث عن الذهب، فقد بحثوا عن أسطورتهم الشخصيّة دون رغبة بأن يعيشوا الأسطورة نفسها.

- وما الذي ما يزال ينقص معرفتي

لكن الخيميائي لم يرد وظل يحدّق في الأفق.

وبعد أن عاد الصقر بفريسته، حفرا حفرة، وأشعلا النار فيها حتى لا يتمكّن أحد من رؤية ضوء اللهب.

ثم أجاب الخيميائى بينما كانا يعدان وجبتهما :

- إنني خيميائى لأنني هكذا، وقد أخذتُ هـذا العلـم عـن أسـلافي الذين أخذوه عن أسلافهم، وهكذا على التوالي منذ خُلق الكون، حيـث كان من الممكن للإنجاز العظيم كلّه أن يكون مكتوباً على زمرّدة بسيطة. لكن البشر لم يعطوا أية أهمية للأشياء البسيطة وبـدءوا بكتابـة مؤلفـات وترجمات ودراسات فلسفية، وادّعوا بـأنهم قـد عرفـوا السـبيل بشـكل أفضل مما عرفه الآخرون.

سأل الشاب:

- ما الذى كان مدوّناً على لوحة الزمرّد؟

بدأ عندها الخيميائي بالرسم على الرمل، ولم يستغرق معه هذا العمل أكثر من خمس دقائق.

وبينما كان يرسم، تذكّر الشاب الملك العجوز، والمكان الذي جمعهما، وقد بدا له ذلك مغرقاً في القدم.

قال الخيميائي:

- هذا ما كان مكتوباً على لوح الزمرّد.

عندما انتهى، اقترب الشاب وقرأ الكلمات المكتوبة على الرمل.

قال وقد اعتراه شيء من الخيبة:

- إنها رموز، وكأنها تلك التي كانت موجودة في كتب الإنكليزي.

أجاب الخيميائي:

- لا، إنه أشبه بطيران الصقرين. ولا ينبغي لهذا أن يفهم وذلك لسبب وحيد: هو أن لوح الزمرّد معبر مباشر نحو روح الكون.

((لقد فهم الحكماء أن هذا العالم الطبيعي ليس إلا صورة مشابهة أو نسخة عن الجنّة، وطالما أن العالم موجود، فهذا وحده دليل كاف على أن هناك عالماً أكثر كمالاً منه، وقد خلقه الله كي يستطيع الناس إدراك تعاليمه الروحية، وروائع حكمته، وهو ما دعوه بالعمل)).

- هل يتوجب عليَّ أن أفهم لوح الزمرّد.

- ربما، فلو كنت في مختبر خيميائي، لأتيحت لك فرصة لدراسة أفضل الطرق لفهم لوح الزمرّد، لكنك في الصحراء، فخير لك أن تتوغل بها أكثر، فهي تفيد بفهم الكون أكثر من أي شيء آخر على سطح الأرض، حتى أنك لست بحاجة إلى فهم الصحراء، بل يكفي أن تتأمل حبة رمل بسيطة، لترى فيها عجائب الخلق كلّها.

- ما الذي يجب أن افعله كي أتوغل في رحم الصحراء؟

- اصغِ إلى قلبك، إنه يعرف كل شيء، لأنه وُلد من روح الكون، وسيعود إليها ذات يوم.

سارا بصمت طيلة يومين، وبدا الخيميائي محترساً أكثر، لأنهما كانا يقتربان من منطقة المعارك الأكثر ضراوة، بينما كان الشاب يجهد نفسه في الإصغاء إلى قلبه.

كان قلباً عصياً على الاستجابة، فمن قبل كان مستعداً دائماً للرحيل، أما الآن فهو يريد الوصول بأي ثمن.

لقد روى له قلبه مرّات عديدة قصصاً تلهب عنده الحنين إلى الوطن، وأحياناً كان قلبه يتأثر عند شروق الشمس في الصحراء، فيجعله يبكي ويبكي في الخفاء، لكنّه كان يخفق بسرعة عندما يحدّثه عن الكنز، وتتباطأ دقاته كلّما شردت عينا الفتى في أفق الصحراء اللامتناهي، غير أنه لم يكن ليصمت أبداً.

في ذلك المساء، بينما كانا يتوقفان في استراحة، سأل الشاب:

- لماذا علينا أن نصغي إلى قلوبنا ؟

- لأنه حيث يكون قلبك يكون كنزك.

قال الشاب:

- قلبي مضطرب، إنه يحلم، يفكّر، وهو عاشق لفتاة من الصحراء، ويطالبني بأشياء تقضّ مضجعي عندما أفكّر بها.

- هذا جيّد فقلبك حيّ، واظب على الإصغاء لما يقوله لك.

وخلال ثلاثة أيام متتالية، التقيا عدة مقـاتلين، ولمحـا آخـرين أيضـاً عند خط الأفق، بدأ قلب الشاب يتحدّث عن الخوف، روى قصصاً قـد سمعها من روح الكون، قصص عن رجال ارتحلوا بحثاً عـن كنـوزهم، لكنهم لم يجدوها على الإطلاق.

كان قلبه يخيفه أحياناً، من احتمال إخفاقه هو أيضـا في إدراك الكنـز، أو احتمال موته في الصحراء، أو كان يقـول لـه بأنـه الآن راضِـياً بفـوزه بلقاء حبه، واكتسابه عدد كبير من القطع الذهبيّة.

وعندما توقفا لإراحة حصانيهما قال الشاب للخيميائي:

- قلبي خائن، إنه لا يريد لي أن أتابع طريقي.

رد عليه الخيميائي:

- هذا جيّد، فهذا برهان على أن قلبك حـي، وإنـه مـن الطبيعـي أن تخاف أن تستبدل كل نجاحاتك مقابل حلم.

- إذن، لماذا عليّ أن أصغي إلى قلبي؟

- لأنك لن تستطيع إسكاته أبداً، حتى لو تظاهرت بعـدم سماع مـا يقوله لك، سيبقى هنا في صدرك، ولن ينقطع عـن ترديـد مـا يفكّـر بـه حول الحياة والكون.

- حتى وهو خائن؟

- الخيانة هي الضربة التي لا تتوقعها، وإن كنتَ تعرف قلبك جيّداً،

فلن يستطيع مباغتتك على حين غرّة، لأنك ستعرف أحلامه ورغباته، وستعرف كيف تتحسب لها، لا أحد يستطيع التنكّر لقلبه، ولهذا يكون من الأفضل سماع ما يقول كي لا يوجه لك ضربة لم تكن تتوقعها أبداً.

تابع الفتى الإصغاء إلى قلبه بينما كانا يتقدّمان في الصحراء، وقد استطاع معرفة حيله ومناوراته، وانتهى إلى قبوله كما هو عليه، عندئذٍ أحجم عن الخوف، وعن الرغبة في العودة على أعقابه، لأن قلبه أخبره ، ذات مساء، أنه كان مسروراً، وأسر إليه قائلاً:

((حتى لو تذمرت قليلاً، فهذا لأنني قلب رجل وقلوب الرجال هي هكذا دوماً، إنهم يخافون تحقيق أعظم أحلامهم، لأنهم يظنون إنهم إما لا يستحقّون بلوغها، أو لا يستطيعون النجاح في بلوغها، فنحن القلوب نموت لمجرّد التفكير بحب توارى إلى الأبد، أو بلحظات ماتت، وكان من الممكن لها أن تكون رائعة، وبالكنوز التي لم يُقدّر لها أن تُكتشف وبقيت مطمورة في الرمال، وأخيراً عندما يحصل هذا فإننا نتعذّب بشكل رهيب)).

ذات ليلة ، قال الشاب للخيميائي وهما يتأملان سماءً لا قمر فيها:

- إن قلبي يخشى الألم.

- قل له إن الخوف من الألم أسوأ من الألم نفسه، وليس هناك قلب يتعذّب عندما يتبع أحلامه، لأن كل لحظة من السعي هي لحظة لقاء مع الله و الخلود.

قال الشاب لقلبه:

((كل لحظة في السعي هي لحظة لقاء، فعندما كنت أبحث عن كنزي، فإن أيامي كلها كانت ساطعة، لأنني علمت أن كل ساعة تمر كانت جزءاً من حلم إيجاده، عندما كنت أبحث عن كنزي اكتشفت في طرقي أشياء لم أكن أحلم أبداً بمصادفتها، لو لم أملك الشجاعة لمحاولة القيام بأشياء مستحيلة على الرعاة)).

عصر ذلك اليوم، وإثر ذاك الحديث دبت الطمأنينة في قلبه، وفي الليل نام بهدوء، وعندما أفاق أخذ قلبه يقصّ عليه أشياء عن روح الكون.

قال له قلبه:

((أن كل رجل سعيد كان هو ذاك الذي آمن بالله في داخله، وأنه يمكن للسعادة أن تكون موجودة في حبة رمل بسيطة في الصحراء- على حد قول الخيميائي- لأن حبة الرمل هي لحظة من عملية الخلق، وأن الكون قد استغرق ملايين وملايين السنين في خلقها.

((لكل امرئ على الأرض كنزه الذي ينتظره، فنحن القلوب، ربما ما نتحدّث عنها، لأن البشر لا يريدون العثور على هذه الكنوز، نحن لا نتحدّث عنها إلا للأطفال الصغار، وبعد ذلك ندع للحياة أن تتحمّل مسئولية قيادة كل واحد نحو قدره، ولسوء الحظ فإن قليلاً من البشر يتبعون الدرب الذي خطّته لهم الحياة، والذي هو سبيل الوصول إلى

الأسطورة الشخصيّة وإلى السعادة.

((غالبية الناس ينظرون إلى العالم كمصدر خطر، ولهذا السبب فإن العالم يغدو في الواقع شيئاً خطراً. عندئذٍ، فإننا نحن القلوب نبادر إلى الحديث بصوت منخفض أكثر فأكثر لكننا لا نصمت إطلاقاً، ونتمنّى بألا يكون كلامنا مسموعاً، نحن لا نريد للبشر أن يتعذّبوا لأنهم لم يسلكوا الطريق التي أرشدناهم إليها)).

سأل الشاب الخيميائي:

– لماذا لا تقول القلوب للناس أن عليهم ملاحقة أحلامهم ؟

– لأن القلب هو من يتألم في هذه الحالة، والقلوب لا تَهوَي الألم.

منذ ذلك اليوم، أصغى الشاب إلى قلبه، فطلب منه ألا يتخلّى عنه أبداً وأن ينقبض في صدره عندما يكون بعيداً عن أحلامه وأن يعطيه إنذار الخطر، وأقسم أنه سيأخذ حذره في كل مرة يسمع فيها هذا الإنذار.

سأله الشاب:

– ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

قال الخيميائي:

– واصل السير باتجاه الأهرامات، وانتبه للإشارات، فقلبك الآن قادر أن يدلّك على مكان الكنز.

- كان هذا إذن ما أجهله حتى الآن؟!

- لا، والشيء الذي ما تزال معرفتك تفتقر إليه هو التالى:

((إن روح الكون ،قبل إن تحقق حلماً ،تريد أولاً أن تقييم دائماً ما تعلمناه أثناء مسيرنا، وهذا ليس بدافع أذيتنا، وإنما لنتعلم مع أحلامنا في آن واحد الاستفادة من الدروس التي نتعلمها في طريقنا إلى تحقيق ذلك الحلم، وتلك هي اللحظة التي يتخلى فيها كثير من الناس عن حلمهم، وهذا ما نسميه في لغة الصحراء: الموت عطشاً، عندما تكون نخلات الواحة بادية في الأفق.

((إن كل سعي يبدأ دائما بحظ المبتدئ ،وينتهي دائماً باختبار المقتحم)).

تذكّر الشاب المثل الشعبي القائل:

((أشدّ ساعات اليوم ظلمة هي تلك التي تسبق طلوع الشمس)).

ظهرت أولى إشارات الخطر الحقيقي في اليوم التالي، فقد ظهر ثلاثة محاربين، واقتربوا من الرجلين، وسألوهما عما يفعلانه هنا.

أجاب الخيميائي:

- جئت لأصطاد مع صقري.

فقال أحد المحاربين:

- علينا أن نفتّشكما لنرى ما إذا كنتما تحملان سلاحاً.

نزل الخيميائي عن حصانه بكل هدوء، وكذلك فعل الراعي.

سأل المقاتل لدى رؤيته كيس نقود الشاب :

- لماذا كل هذا المال؟

- لكي أذهب إلي مصر.

ووجد الرجل الذي يفتّش الخيميائي، قارورة صغيرة من الزجاج مليئة بسائل، وبيضة من الزجاج صفراء اللون، بحجم بيضة الدجاج تقريباً.

سأله الرجل:

- ما هذا؟

- إنه ((حجر الفلاسفة)) و ((إكسير الحياة))، إنجاز الخيميائيين

العظيم، من يشرب من هذا السائل لن يتعرّض للمرض أبداً، وإن قطعة صغيرة جداً من هذا الحجر تحوّل أي معدن إلى ذهب.

انفجر الرجال الثلاثة ضاحكين، وشاركهم الخيميائي بالضحك، فقد وجدوا الجواب مضحكاً، ثم سمحوا لهما بالذهاب مع كل ما يملكانه دون أن يعرقلا مسيرتهما أكثر.

وعندما صارا على مسافة منهم، قال الشاب للخيميائي:

- هل أنت مجنون ؟! لماذا أجبتَ هكذا؟

- كي أُظهر لك واحداً من قوانين العالم، قانوناً بسيطاً للغاية: عندما تكون كنوزنا قريبة جداً منا، فإننا لا نلاحظها أبداً، أتعلم لماذا؟ لأن الناس لا يؤمنون بالكنوز.

تابعا مسيرهما في الصحراء، وكلما مرت الأيام، كان قلب الشاب يميل أكثر فأكثر إلى الصمت. لم يكن يهتم بالماضي أو المستقبل بل اكتفي بتأمل الصحراء والارتواء مع قلبه من روح الكون. فقلبه وهو صارا صديقين حميمين غير قادرين بعد الآن على أن يخون أحدهما الآخر.

فعندما كان القلب يتكلّم، فكان يتكلم لكي يحث الشاب ويشجعه، لاسيما وأنه كان يجد أيام الصمت الطويلة متعبة بشكل مقيت، وللمرة الأولى حدّثه قلبه عن مزاياه العظيمة: الشجاعة التي هوّنت عليه هجران أغنامه ليعيش أسطورته الشخصيّة، والحماس الذي أبداه في متجر الأواني الزجاجية.

أخبره بشي آخر لم يلاحظه الشاب من قبل: الأخطار التي كان يسير بمحاذاتها ولم يدركها، ففي إحدى المرّات كان قد أخفي المسدس الذي اختلسه من أبيه وأوشك فعلاً أن يلحق بنفسه الأذى، ذكّره بيوم ألمت به حالة من الإعياء، وهو في وسط الريف: تقيأ، ثم نام زمناً لا بأس به، بينما كان هناك اثنان من قطّاع الطرق على مسافة منه، يتربصان به لسرقة أغنامه وقتله، ولكن تأخره عن الموعد المعتاد ، جعلهما ينصرفان، اعتقاداً منهما بأنه غير خط سيره المعتاد.

سأل الشاب الخيميائي:

– هل القلوب تكون عوناً للناس دائماً؟

– إنها تساعد فقط الذين يعيشون أسطورتهم الشخصيّة، لكنها تساعد كثيراً الأطفال، والسكّيرين والمسنّين.

– هل هذا يعني أن الخطر لا وجود له؟

– هذا يعني بكل بساطة أن القلوب تعمل كل ما بوسعها.

مرّا ذات مساء على مضرب خيام لإحدى العشائر المتحاربة، حيث كان هناك الكثير من الأعراب بزيّهم الرائع، وأسلحتهم الجاهزة، كان الرجال يدخّنون النرجيلة ويثرثرون، متحدّثين عن الحروب، لكن أحداً لم يعر اهتماماً للمسافرين.

فقال الشاب بعد أن ابتعدا.

- لا يوجد أي خطر .

غضب الخيميائي قائلاً:

- ثق بقلبك، ولا تنسَ أبداً أنك في الصحراء، فعندما يتحارب الناس فإن روح الكون هي أيضاً تسمع صيحات القتال، ولا أحد في منجى مما يمكن أن يحصل تحت السماء.

قال الشاب في نفسه:

((كل شيء هو شيء واحد وفريد)).

وفجأة ظهر فارسان وراء المسافرين، فكأن الصحراء كانت تريد أن تثبت حكمة الخيميائي.

قال أحدهما:

- لن تستطيعا المضي بعيداً، فأنتما في منطقة المعارك.

قال الخيميائي وهو ينظر في عيون المحاربين:

- أنا لستُ بذاهب إلى أبعد من ذلك.

صمتا للحظات قليله، ثم أذنا لهما بمتابعة المسير، كان الشاب قد عاين الموقف وهو مفتون .

فقال للخيميائي:

- لقد قهرتهما بنظرتك.

أجاب الخيميائي:

- العيون تظهر قوّة الروح.

حدّث الشاب نفسه:

((نعم، هذا صحيح ، فقد تذكّر أن مقاتلاً في جمهرة محاربي المخيّم قد حدّق بالخيميائي وبه، علماً بأنه كان بعيداً، بشكل لا يمكن للمرء أن يميّز ملامحه، لكنه كان متأكداً من مراقبته لهما)).

أخيراً، وبينما كانا يتأهّبان لاجتياز سلسة جبلية تمتد على طول الأفق، أخبره الخيميائي بأنهما صارا على مسافة يومين، حتى يصلا إلى الأهرامات.

فقال الشاب:

- إن كان ينبغي علينا أن نفترق عما قريب، فأرجو أن تعلّمني الخيمياء .

- أنت تعرف مسبقاً ما يجب عليك معرفته، ليس عليك إلا أن تَنفَذَ داخل روح الكون، وأن تكتشف الكنز الذي تدّخره لكل واحد منا.

- ليس هذا ما أريد معرفته، إنني أتكلّم عن تحويل الرصاص إلى ذهب.

احترم الخيميائي صمت الصحراء، ولم يجب إلا في اللحظة التي توقفا فيها لتناول الطعام:

- كل شيء في الكون ينمو ويتطوّر، وبالنسبة للـذين يعلمـون، فـإن الذهب هو أكثر المعادن تطوّراً،ولا تسألني لماذا، فأنا أجهـل ذلـك، أنـا أعلم فقط أن ما تعلمه التقاليد هو دائماً صحيح، لكن البشر هـم الـذين أخطئوا في تفسير كلام الحكماء، وبدل أن يكـون الـذهب رمـزاً للتطـوّر فقد صار علامة للحرب.

- الأشياء تتحدّث بلغات عديدة، فقد لاحظت أن رغـاء الجمـل، لم يكن إلا مجرّد رغاء، ثم تحوّل إلى إشارة تنذر بالخطر، ثم عاد أخيراً مجـرّد رغاء.

أراد الشاب أن يقول هذا للخيميـائي لكنّـه صـمت، فـلا شـك أن الخيميائي يعرف هذا كلّه.

أردف الخيميائي:

- عرفت خيميائيين حقيقيين ، كانوا ينعزلون في مختـبراتهم، وكـانوا يحاولون التطوّر كالذهب، وقد اكتشفوا ((حجر الفلاسفة))، هذا لأنهـم قد أدركوا أنه عندما يتطوّر شيء مـا فـإن كـل مـا حولـه يتطـوّر أيضـاً، وآخرون نجحوا مصادفة باكتشاف الحجر، فهم كـانوا مـن الموهـوبين، وأرواحهم كانـت متيقظـة أكثـر مـن أرواح الآخـرين، لكـن هـؤلاء لم يُؤخذوا بالحسبان لأنهم قِلة. وأخيراً، هناك آخرون كانوا يبحثـون عـن الذهب فقط، وهؤلاء لم يتوصلوا إلى السر أبداً، فقد غاب عـن بـالهم أن الرصاص والحديد والنحاس، هم أيضاً لهم أسطورتهم الشخصيّة التـي

يجب إنجازها، وأن من يدخل ويندمج في أسطورة الآخـرين، فإنـه لـن يجد على الإطلاق أسطورته الخاصة.

كلمات الخيميائي كان لها وقع اللعنة في نفسه.

انحنى الخيميائي والتقط قوقعة من الأرض وقال:

- لقد كانت هذه الأرض بحراً من قبل.

- لقد سبق ولاحظتُ ذلك.

طلب منه الخيميائي أن يضع القوقعة على أذنـه، فهـو قـد قـام بهـذه الحركة كثيراً عندما كان طفلاً، وقد سمع منهـا صـوت البحـر. فـالبحر يقبع دائماً في هذه الصدفة، لأنها أسطورته الشخصـية، ولـن يفارقهـا إلى أن تعود البحار وتغمر الصحراء ثانية.

إثر ذلك امتطيا حصانيهما، وسارا باتجاه أهرامات مصر.

كانت الشمس تميل نحو الغروب، عندما شعر الفتى بأن قلبه يعطي إشارة خطر، كانا قد أُحيطا بكثبان رملية هائلة، والشاب نظر إلى الخيميائي، الذي يبدو أنه لم يلاحظ شيئاً، وبعد خمس دقائق لمحا أمامهما مباشرة فارسين، بدا خيالهما بوضوح من جهة الغرب، وقبل أن يتمكّن من أن يقول للخيميائي أي شيء، فإن عدد الفرسان قد تزايد، بدل الاثنين صار هناك عشرة، ثم مائة، وأخيراً غطّى عدد هائل منهم منطقة الكثبان بكاملها.

كانوا محاربين يرتدون ثياباً زرقاء، ويضعون عقالات سوداء حول العمامات، وجوههم ملثّمة بألثمة زرقاء لا يظهر منها إلا فسحة صغيرة، إنها عيونهم. وعلى الرغم من بُعد المسافة، كانت العيون تعكس قوة الروح وتنذر بالموت في آنٍ واحد.

اقتيد المسافران حتى المعسكر الحربي الذي كان في الجوار، ودفع أحد المحاربين الخيميائي وصاحبه داخل خيمة مختلفة تماماً عن خيام الواحة التي عرفاها، كان هناك قائد حربي محاط بأركانه.

قال أحد الرجال:

- إنهما الجاسوسان .

رد عليه الخيميائي:

- نحن لسنا إلا مسافرين.

- لقد رأيناكما في معسكر الأعداء منذ ثلاثة أيام، وقد تكلّمتما مع أحد المقاتلين.

قال الخيميائي:

- أنا رجل أسير في الصحراء، ولي خبرة بالنجوم ، وليس لدي أية معلومة عن الجيوش، أو عن تحرّكات القبائل، كنت أرشد صديقي إلى هنا فقط.

سأل القائد:

- من هو صديقك؟

قال الخيميائي :

- إنه خيميائي. إنه يعرف قدرات الطبيعة، ويرغب أن يطلع القائد

على قدراته الخارقة.

كان الشاب يصغي وهو خائف.

سأل واحد من الرجال:

- ماذا يفعل غريب في أرضٍ غريبة؟

تدخّل الخيميائي قبل أن ينطق الشاب بأية كلمة:

- لقد حملت مالاً لأقدّمه لعشيرتكم .

ثم أخذ كيس المال من الشاب، وأعطى القطع الذهبية للقائد، الذي تناولها دون أن يقول شيئاً، ففيها ما يكفي لشراء كمٍّ كبير من الأسلحة.

سأل العربي أخيراً:

- من هو الخيميائي؟

- إنه رجل يعرف الطبيعة والكون، ولو أراد لاستطاع أن يدمر هـذا المخيّم مستعملاً في ذلك قوّة الريح فقط.

ضحك الرجال، فقد اعتادت قلـوبهم عـلى قسـوة الحـرب، وكـانوا يعلمون أن الريح لا تستطيع أن توجه ضربة قاضية. ومـع ذلـك، شـعر كل واحد منهم بقلبـه ينقـبض في صـدره، فهـم مـن رجـال الصـحراء ويخافون من السحرة.

قال القائد:

- أريد أن أرى شيئاً من هذا.

أجاب الخيميائي:

- يلزمنا لذلك ثلاثة أيام، وهذا ليس إلا ليطلعكم على قدراته الخاصة، فإن لم ينجح، نقدّم لكم بكل تواضع حياتنا إكراماً لشرف العشيرة.

أجاب القائد متغطرساً:

- لا تستطيع أن تهدي إليّ ما هو ملكي مسبقاً.

لكنه منح مهلة ثلاثة أيام للمسافرين.

كان الشاب المذعور عاجزاً عن القيام بأية حركة، فاضطر الخيميائي أن يسحبه من ذراعه كي يساعده على الخروج من الخيمة.

- لا تظهر لهم أنك خائف، فهم رجالٌ بواسل ويحتقرون الجبناء.

فقد الفتي القدرة علي النطق، ولم يستعد صوته إلا بعد فترة من الزمن بينما كانا يمشيان وسط المخيّم. ولما كان من غير المفيد احتجازهما، فقد اكتفي العرب بانتزاع حصانيهما، وهاهي مرة أخرى، يكشف فيها العالم عن لغات لا تحصى: فالصحراء التي كانت حتى الآن فضاءً رحباً، لا حدود له، قد تحوّلت إلى سور يتعذّر عبوره.

قال الشاب:

- لقد أعطيتهم كنزي كله، كل ما جنيته خلال حياتي كلها !

- وبماذا يفيدك المال إن كنت ستموت؟ لقد أنقذك مالك من الموت لثلاثة أيام، ونادراً ما يفيد المال في تأجيل الموت.

أما الشاب فقد كان خائفاً جداً ، لدرجة ، تحول دون سماعه كلام الحكمة، فهو لا يعرف كيف ينقلب إلى ريح، فهو لم يكن خيميائياً.

طلب الخيميائي الشاي من أحد المحاربين، وسكب بعضاً منه على رسغي الشاب، فانتشرت موجة من السكون في أعماقه، بينما كان الخيميائي يلفظ بعض الكلمات التي لم يستطع الفتى فهمها.

قال الخيميائي بصوت عذب للغاية:

-لا تستسلم لليأس، فإن هذا يمنعك من التحدث مع قلبك.

- لكنني لا أعرف كيف أحوّل نفسي إلى ريح.

- من يعيش أسطورته الشخصيّة، يعرف كل ما هو بحاجة لمعرفته، وليس هناك إلا شيء واحد يمكن أن يجعل الحلم مستحيلاً: إنه الخوف من الإخفاق.

- أنا لستُ خائفاً من الإخفاق، وكل ما في الأمر أنني لا أعرف كيف أتحوّل إلى ريح.

- حسنٌ، عليك أن تتعلّم ! حياتك رهن بذلك.

- وإن لم أتوصل إلى ذلك.

- ستموت في سبيل أسطورتك الشخصيّة، وهذه ميتة أثمن بكثير من هؤلاء الذين قضوا حياتهم، دون أن يعلموا شيئاً عن وجود أسطورة شخصيّة، لكن لا تقلق، فإن الموت يجعلنا أكثر انتباهاً للحياة.

مضى اليوم الأول، وجرت خلاله معركة حامية في الجوار، ونُقل إلى المعسكر عدد كبير من الجرحى.

فكّر الشاب:

«لا شيء يتغيّر بالموت، فالمقاتلون الذين ماتوا، سيستعاض عنهم بآخرين والحياة تستمر».

قال أحدهم مخاطباً جثة أحد رفاقه:

- كان من الممكن لك أن تموت فيما بعد يا صديقي، كان من الممكن أن تموت بعد أن يحل السلام، فهي ميتة واحدة، ومهما يكن من أمر فإنك ستموت في النهاية.

عند المساء ، ذهب الشاب ، ليلاقي الخيميائي الذي كان يصطحب الصقر معه في الصحراء .

وقال من جديد:

- لا أعرف كيف أتحوّل إلى ريح.

- تذكّر ما قلته لك: ((العالم ليس إلا الجزء المرئي من الله، والخيمياء ،هي نقل للكمال الروحي إلى العالم المادي)).

- ماذا تفعل؟

- أطعم صقري.

- إن لم أنجح في التحوّل إلى ريح، ستموت، فما الحاجة إلى إطعام الصقر؟

- أنت وحدك، ستموت ، أما أنا، فأعرف كيف أتحوّل إلى ريح.

في اليوم الثاني تسلّق الشاب ذروة صخرة تقع على مقربة من المعسكر، وقد تركه الحراس يمر، كانوا يتحدّثون عن ساحر يتحوّل إلى ريح، ولم يكونوا يودون الاقتراب منه، بالإضافة إلى ذلك، فإن الصحراء كانت تشكّل سوراً يتعذّر عبوره.

قضى بقيّة ظهيرة اليوم الثاني في تأمّل الصحراء، أصغى إلى قلبه، وأصغت الصحراء إلى الخوف الذي يتملّكه.

فكلاهما كان يتكلّم اللغة نفسها.

في اليوم الثالث جمع القائد أعوانه الرئيسيين، وقال لهم:

- هيا بنا نرَ ذلك الساحر الذي يتحوّل إلى ريح.

فقال لهم الخيميائي:

- هيا بنا.

قادهم الشاب إلى المكان الذي مكث فيه بالأمس، ثم طلب من الجميع أن يجلسوا.

قال الخيميائي:

- إن هذا سيتطلّب قليلاً من الوقت.

أجاب القائد:

- لسنا في عجلة من أمرنا، فنحن من رجال الصحراء.

أخذ الشاب يتأمل الأفق قبالته، ثمة جبال تبدو من بعيد، كثبان رملية، صخور، ونباتات زاحفة تتشبّث بالحياة هناك حيث البقاء شبه مستحيل. وحيث كانت تجثم الصحراء التي جابها طيلة شهور وشهور، ولم يكن يعرف منها على الرغم من ذلك إلا جزءاً يسيراً.

ففي ذلك الجزء كان قد التقى إنكليزياً، وقوافل، ونزاعات بين العشائر، وواحة ذات خمسين ألف شجرة نخيل، وثلاثمائة بئراً.

سألته الصحراء:

- ماذا تريد مني اليوم، ألم نتأمّل بعضنا بعضاً بما يكفي يوم أمس؟

- أنتِ تحتفظين في مكانٍ ما بالفتاة التي أحبها، وعندما أتأمل مساحتك الرملية الشاسعة فأنا أتأملها هي أيضاً، أريد الرجوع إليها، وأحتاج إلى مساعدتك كي أتحوّل إلى ريح.

سألت الصحراء:

- ما هو الحب؟

- الحب هو عندما يحلّق الصقر فوق رمالك، لأنك بالنسبة له ريف أخضر، لا يعود منه خائباً قط دون فريسة، وهو يعرف صخورك، كثبانك، جبالك، وأنتِ كريمة معه.

قالت الصحراء:

- إن منقار الصقر ينتزع قطعاً مني، هذه الفريسة قد غذّيتها طيلة أعوام، رويتها بالقليل من الماء الذي أملكه، وأرشدها إلى المكان الذي تجد فيه قوّتها، ويوم كبرت وأوشكت أن أشعر بها تحبوا على رمالي، هاهو الصقر ينتفض من السماء ليختطف ما جعلته ينمو ويكبر.

أجاب الشاب:

- ما فعلته لهذه الطريدة من إطعام ورعاية كان لهذه الغاية بالذات، تطعمي الصقر، والصقر سيطعم الإنسان، والإنسان سيطعم رمالك يوماً ما، ومنها ستولد الطريدةِ من جديد، وهكذا يسير العالم.

- هل هذا هو الحب؟

- هو ذا نعم، هو من يجعل الفريسة تتحوّل إلى صقر، والصقر إلى إنسان، والإنسان إلى تراب، هو من جعل الرصاص يتحوّل إلى ذهب، ويجعل الذهب يعود ليختبئ في باطن الأرض.

قالت الصحراء:

- لم أفهم كلامك.

- إذن افهمي على الأقل، أن في بقعة ما وسط رمالك، هناك امرأة تنتظرني، ولكي أعود إليها، عليّ أن أتحوّل إلى ريح.

- أستطيع أن أقدّم لك رمالي كي تستطيع الريح أن تهب، لكن بمفردي لا أستطيع شيئاً. أطلب مساعدة الريح.

نسمة خفيفة أخذت تهب، وزعماء الحرب مازالو يراقبون الشاب من بعيد، كان يتكلّم لغة مجهولة بالنسبة لهم.

والخيميائي كان يبتسم.

وصلت الريح إلى الشاب، وداعبت وجهه، كانت قد سمعت حديثه مع الصحراء، لأن الرياح تعرف دائماً كل شيء، فهي تطوف العالم دون أن يكون لها مكان تولد فيه، أو مكان تموت فيه.

قال الشاب متوسلاً للريح:

- ساعديني، فقد سمعت فيك صوت حبيبتي ذات يوم.

- من علّمك التكلّم بلغة الصحراء والريح؟

أجاب الشاب:

- قلبي هو الذي علمني.

الريح كانت تحمل عدة أسماء، فهي تدعى هنا بالسيروكو أو السموم، العرب كانوا يعتقدون بأنها كانت تأتي من الأراضي ذات المياه الغزيرة والمأهولة بسكان سود، وفي البلد البعيد الذي قدم منه الشاب كانت تسمّى بالشرقيّة، لأن الناس كانوا يظنّون بأنها تحمل الرمل وصيحات العرب القتالية، وربما في مكان آخر، بعيداً عن الحقول التي ترتعي فيها القطعان، يعتقد الناس فيه بأنها تنشأ في الأندلس.

لكنها لا تولد من جهة، ولا تنتهي إلى جهة، لذلك فهي أقوى من الصحراء، فمن الممكن يوماً أن نغرس الأشجار في الصحراء، وحتى أن نرعى فيها الأغنام، لكننا لا نستطيع إطلاقاً أن نتحكّم بالريح أو نقهرها.

قالت الريح للشاب:

- أنت لا تستطيع أن تكون ريحاً فطبيعتنا مختلفتان.

- هذا ليس صحيحاً، فأنا قد تعلّمت أسرار الخيمياء، بينما كنت أجوب العالم معك، فأنا أملك في داخلي الرياح، والصحاري،

والمحيطات، والنجوم، وكل ما خُلق في الكون، وكلّنا خلقتنا يد واحدة، ولنا الروح نفسها، أريد أن أكون مثلكِ ، أخترق كل مكان، أعبر البحار، أنتزع الرمل الذي يغطّي كنزي، وأقرّب صوت حبيبتي مني.

- لقد سمعت محادثتك مع الخيميائي، في ذلك اليوم، كان يقول أن لكل شيء أسطورته الشخصيّة، والبشر- لا يمكن لهم أن يتحوّلوا إلى ريح.

توسل لها الشاب:

- علّميني أن أكون ريحاً لبضع لحظات، كي نستطيع التحدّث سويّة عن الإمكانات غير المحدودة للرياح والبشر.

كانت الرياح فضولية وكان هناك شيء ما لم تكن تعرفه، بيد أنها كانت تعرف الكثير من الأشياء، كانت تستطيع إنشاء صحراء، إغراق مراكب، إبادة غابات بأسرها، وأن تتجوّل في مدن تعج بالموسيقى ، وأنواع غريبة من الضوضاء.

كانت تؤمن بقدراتها الغير محدودة، وهاهي الآن أمام شاب يؤكد أن بإمكان الريح أن تقوم بأشياء أخرى.

قال الشاب لدى رؤيته أن الريح قد أوشكت أن تستجيب لطلبه:

- هذا ما يسمّونه الحب، وعندما نحب، نستطيع أن نكون شيئاً من الخليقة، ولسنا بحاجة لفهم ما يجري، لأن كل شيء إنما يجري في داخلنا،

وإن الناس يستطيعون أن يتحولوا إلى ريح بشرط أن تساعدهم الريح طبعاً.

كانت الريح متغطرسة، وما قاله الشاب أثار سخطها، فراحت تعصف بقوّة كبيرة، مذرية رمال الصحراء، لكن عليها أن تعترف أنها وبعد كل هذا الطواف في العالم بأسره، فهي مازالت تجهل تحويل رجل إلى ريح، وإنها لم تكن تعرف الحب.

قالت الريح:

- خلال جولاتي عبر العالم، لاحظت الكثير من الناس يتحدّثون عن الحب، وهم ينظرون إلى السماء ساخطين لأن عليهم أن يسلّموا بحدودها، ربما من الأفضل لك أن تستعين بالسماء.

أجاب الشاب:

- إذن ساعديني، وغطي هذا المكان بالغبار، كي أستطيع النظر في الشمس دون أن أصاب بالعمى.

عصفت الريح بشكل أقوى، فاكتسحت الرمال وجه السماء حتى بدت السماء مجرّد قرص ذهبي.

صار من الصعب تمييز أي شئ في المعسكر، فرجال الصحراء يعرفون جيّداً هذه الريح، ريح السموم، كانت أسوأ من عاصفة البحر، لكنهم لا يعرفون البحر، الخيول تصهل، والأسلحة تغطّت بالرمال.

وعلى الصخرة، التفت رجل من قادة الحرب نحو الزعيم وقال:

- ربما سيكون من الأفضل التوقف عند هذا الحد.

كانوا يميّزون الشاب بصعوبة، وكانت وجوهم ملثّمة، ونظراتهم يبدو فيها القلق والذعر.

ألحّ رجل آخر:

- لننهِ الأمر عند هذا الحد.

قال الزعيم بصوت فيه كل الخشوع:

- أريد أن أرى عظمة الله، أريد أن أرى تحوّل رجل إلى ريح.

لكنه سجّل في ذهنه اسمي هذين الرجلين الخائنين، وبمجرّد أن تهدأ الريح، سيخلعهما من مهامهما، فليس لرجال الصحراء أن يخافوا.

قال الشاب للشمس:

- أخبرتني الريح بأنك تعرفين الحب، وإن كنت تعرفين الحب فلابد أنك تعرفين روح الكون التي خُلقت من الحب.

أجابت الشمس:

- من مكاني هذا، أستطيع رؤية روح الكون، فهي على اتصال مع روحي، وبتعاوننا نحن الاثنتين تنمو النباتات، وتندفع الأغنام التي تبحث عن الظل، ومن مكاني هذا استطعت أن أحب، واعلم أنني لو

اقتربت قليلاً من الأرض لأنقرض كل ما عليها، ولتوقّفت روح الكون عن الوجود، وهكذا فنحن الاثنتين نتبادل النظرات، ونحب بعضنا بعضاً، فأنا أمدّها بالحياة والحرارة، وهي تعطيني سبب البقاء.

كرّر الشاب:

- أنتِ تعرفين الحب؟

تابعت الشمس:

- إنني أعرف روح الكون، لأن بيننا أحاديث لا تنتهي أثناء سفرنا الأبدي في هذا الكون، لقد أخبرتني بأن أفدح مشكلاتها حتى الآن، هي أن المعادن والنباتات وحدها فقط، قد أدركت أن كل شيء هو واحد وفريد، لهذا فإنه ليس من الضروري أن يكون الحديد مشابهاً للنحاس، والنحاس مشابهاً للذهب، فلكلٍ وظيفته الدقيقة في هذا الشيء الأوحد، ولو أن اليد التي كتبت كل هذا توقفت في اليوم الخامس، لأصبح الكل سيمفونية سلام، ولكن كان هناك اليوم السادس.

قال الشاب:

- أنتِ علي علم بكل ذلك ، لأنكِ تشاهدين كل شيء عن بُعد، لكنكِ لا تعرفين الحب، لو لم يكن هناك اليوم السادس، لما وُجد الإنسان، ولكان النحاس نحاساً، والرصاص رصاصاً. لكلٍ أسطورته الشخصيّة - هذا صحيح - لكن هذه الأسطورة ستكتمل ذات يوم، فيجب التحوّل إلى ما هو أرقى، إلى أسطورة شخصيّة جديدة، إلى أن

تصبح روح الكون حقاً شيئاً واحداً وفريداً.

ظلّت الشمس حالمة، ثم أخذت تلمع لمعاناً عجيباً، والريح التي كانت معجبة بهذه المحادثة عصفت بقوة أيضاً كي لا تذهب الشمس ببصر الشاب.

ثم قال هذا الأخير:

- لهذا وُجدت الخيمياء، كي يبحث كل إنسان عن كنزه ويجده، ويسعى أن يعيش فيما بعد أفضل مما كان عليه، والرصاص سيقوم بدوره، إلى أن يصبح العالم بغير حاجة إليه، عندئذٍ ينبغي عليه أن يتحوّل إلى ذهب. الخيميائيون يتوصّلون إلى تحقيق هذا التحوّل، ويبيّنون لنا أنه عندما نسعى لأن نكون أفضل مما نحن عليه، فإن كل شيء حولنا يتحسّن.

سألت الشمس:

- ولماذا قلت أنني لا أعرف الحب؟

- لأن الحب لا يستدعي الجمود كالصحراء، ولا طواف العالم كالريح، ولا النظر في كل شيء من بعيد مثلك.

الحب هو القوّة التي تحوّل وتصقل روح الكون، فعندما، دخلت عالمها للمرة الأولى، كنت أظنها كاملة، أما بعد فتره، فقد رأيت أنها كانت انعكاساً لكل ما خُلق، وأن لها نزعاتها وأهواؤها، نحن الذين

نغذّي روح الكون، أما الأرض التي نحيا عليها، فإنها ستصبح أفضل أو أسوأ، بقدر ما نكون نحن أفضل أو أسوأ، وهنا تتدخّل قوة الحب، لأننا عندما نحب فإننا لا نريد دائماً أن نكون أفضل مما نحن عليه.

سألت الشمس:

- وماذا تنتظر مني؟

- أن تساعديني كي أتحوّل إلى ريح.

- الطبيعة تعرفني كأكبر عالمة بين كل المخلوقات، لكنني أجهل كيف أحوّلك إلى ريح.

- إلى من أتوّجه إذن؟

- صمتت الشمس لحظة، وكانت الريح تصغي وتستعد لتفشي في العالم بأسره محدودية علمها، فلم يكن بوسعها التهرّب من هذا الشاب الذي كان يتكلّم اللغة الكونية.

قالت الشمس أخيراً:

((توجّه إلى اليد التي كتبت كل شيء)).

أطلقت الريح صرخة رضي، وهبّت بقوة لا عهد لها بها، اقتلعت الخيام المنتصبة في الصحراء، وتحررت الحيوانات من قيودها. وعلى الصخرة، صار الناس يتشبّثون ببعض، خوفاً من أن تحملهم الريح.

عندئذٍ التفت الشاب إلى اليد التي كتبت كـل شيء، وبـدل أن يقـول أدنى كلمة، فقد أحس أن الكون كلّه مكث من حولـه صـامتاً، ومكـث هو صامتاً أيضاً.

فيض من الحب فاض من قلبه، وأخذ بالصلاة، صلاة لم يؤدي مثلها من قبل، لأنها كانت صلاة بدون كلمات، لم يطلب شـيئاً مـن خلالهـا، لم يكن يشكر لأنه وجد مرعىً لأغنامه، لم يكن يبتهل لأنه بـاع المزيـد مـن الأواني الزجاجية، لم يكن يطلب أن تنتظر المرأة التي أحبها عودته.

لكنه أدرك من خلال الصـمت الـذي خيّم، أن الصـحراء والـريح والشمس، كانت هي أيضاً تبحث عن الإشارات التي كانت قد خطّتهـا تلك اليد ، وكانت تريد متابعة طريقها، وتـدرك مـا كـان منقوشـاً عـلى زمرّدة بسيطة.

كان يعلم أن هذه الإشارات منتشرة على الأرض وفي الفضـاء، دون أن يكون في الظاهر ،أي غاية لوجودها، وأنه لا الصحارى، ولا الريح، ولا الشمس، ولا البشر في النهاية، يعلموا لماذا خُلقوا، لكـن تلـك اليـد هي التي تعلم السبب الذي من أجله خُلِقَت الكائنـات، وهـي وحـدها القادرة على صنع المعجزات، وتحويل المحيطات إلى صـحاري، والبشر إلى ريح، لأنها وحدها التي تدرك أن هناك هدفاً سـامياً دفـع الكـون إلى النقطة التي تحوّلت فيها أيام الخلق الستة إلى إنجاز عظيم.

واندمج الشاب في روح الكون، ورأى أن روح الكون هي جزء مـن

روح الإله، وأن روح الإله هي روحه الخاصة، وأنه يستطيع منذ هذه اللحظة أن يحقق المعجزات.

هبّت رياح السموم في ذلك اليوم على نحو لم يسبق له مثيل على الإطلاق، وعلى مدى أجيال، فإن العرب كانوا يروون أسطورة شاب قد تحوّل إلى ريح، وكاد أن يزيل المعسكر، متحدّياً بذلك بأس أهم زعيم حربي من زعماء الصحراء.

عندما توقفت ريح السموم عن العصف، حملقوا كلّهم باتجاه المكان الذي كان فيه الشاب الذي لم يعد هناك، بل كان في الجانب الآخر يراقب العاصفة.

استبد الخوف بالناس أمام هذا السحر، باستثناء شخصين، كانا يبتسمان آنذاك: الخيميائي لأنه وجد تلميذه الحقيقي، ثم القائد، لأن هذا التلميذ قد أدرك مجد الإله.

وفي الغد، ودّع القائد الشاب والخيميائي، وأرسل معهما موكباً من الحرس، ليرافقهما إلى المكان الذي يبغيان الذهاب إليه.

سارا نهاراً بأكمله، ومع حلول المساء ،بلغا دير قبطي، فطلب الخيميائي من مرافقيه العودة وترجّل عن حصانه، ثم قال للشاب:

- ستذهب منذ الآن بمفردك، لم يبق لك إلا ثلاث ساعات من السير كي تصل إلى الأهرامات.

أجاب الشاب:

- شكراً، إنك علّمتني اللغة الكونية.

- لا تشكرني، فلم أفعل شيئاً سوى تذكيرك بما كنت تعرفه مسبقاً.

طرق الخيميائي باب الدير، ففتح الباب راهب يرتدي ثوباً أسود، وتحادثا للحظات باللغة القبطية، ثم أدخل الخيميائي الشاب، وقال:

- لقد طلبتُ منه أن يسمح لي باستعمال المطبخ لبعض الوقت.

ذهبا إلى مطبخ الدير،فأشعل الخيميائي النار، وأحضر الراهب قليلاً من الرصاص الذي صهره الخيميائي في وعاء من الحديد، وعندما صار الرصاص سائلاً ، تناول من جعبته البيضة الصفراء الزجاجية الغريبة التي كانت بحوزته، وكشط عنها قشرة لا تتجاوز سماكتها الشعرة، وغلّفها بالشمع، وألقي بها في الإناء الذي كان يحتوي على الرصاص المصهور، فتلوّن المزيج باللون الأحمر القاني، وعندئذٍ رفع الخيميائي الوعاء عن النار، وتركه يبرد.

تجاذب أطراف الحديث مع الراهب الذي كان مستاءً، فمنذ زمن

طويل، قد شلّت حركة القوافل في الجيزة بانتظار نهاية النـزاع، ولكنّهـا مشيئة الله.

عندما برد المزيج في الوعاء، نظر الراهب والشاب بدهشـة، فالمعـدن قد جفّ حول الجانب الداخل للإناء، لكنّه لم يعد مـن الرصـاص وإنـما أصبح من الذهب.

سأل الشاب:

- هل أستطيع أن أتعلّم ما فعلته؟

أجاب الخيميائي:

- إنها أسطورتي الشخصيّة، وليسـت أسـطورتك، لكننـي أردت أن أبيّن لك أن هذا ممكن.

عاودا إلى مدخل الدير، وهناك قسم الخيميائي القرص إلى أربع قطع متساوية.

قال وهو يقدّم واحداً من هذه الأجزاء إلى الراهب:

- هذه لك، لقاء كرمك تجاه الحجّاج.

أجاب الراهب:

- هذا أكثر مما أستحق بكثير.

- لا تقل هذا، ثانية، فإن الحياة تستطيع أن تسمعك، وتعطيك الأقل

في المرة الأخرى.

ثم اقترب من الشاب:

- هذا لك كي أعوّضك الذهب الذي سُلب منك، وبقي في حوزة القائد الحربي.

أوشك الشاب أن يقول أن هذا أكثر بكثير مما خسره، لكنه وعي ما قال الخيميائي للراهب، فأمسك عن الكلام.

ثم قال الخيميائي:

- أما هذه الحصة فهي لي، لأنه ينبغي عليّ أن أعود من جديد مجتازاً الصحراء، والحرب مازالت مستمرّة بين العشائر.

تناول حينذاك القطعة الرابعة، وأعطاها للراهب أيضاً،وقال له:

- هذا الجزء من أجل هذا الشاب الموجود هنا، ولكن فقط في حال احتاج إليها.

أجاب الشاب:

- لكنني ذاهب للبحث عن كنزي، وهاأنذا صرت قريباً جداً منه الآن.

قال الخيميائي:

- وأنا متأكد من أنك ستجده.

- إذن لماذا هذا الجزء الإضافي؟

-لأنك فقدت المال الـذي جنيتـه مـرتين في فـترة سـفرك، مـرة مـع اللص، وأخرى مع القائـد الحـربي، وأنـا عـربي عجـوز، أؤمـن بحكـم وأمثال بلدي، وثمة مثل منها يقول: ((ما يحدث مـرة يمكـن ألا يحـدث ثانية أبداً، لكن ما يحدث مرتين يحدث بالتأكيد مرة ثالثة)).

ثم امتطيا فرسيهما.

وقال الخيميائي:

- أوّد أن اروي لك قصّة عن الأحلام.

قرّب الشاب حصانه منه، فيما بدأ الخيميائي يروى له القصة.

((في روما القديمة، وفي عهد الإمبراطـور تيبريـوس، عـاش رجـل طيب، كان أبا لولـدين:الأول، انخـرط في الجـيش، وأُرسـل إلى أقصى أقاليم الإمبراطورية، والثاني كان شاعراً، سحر روما بشعره البديع.

وذات ليلة حلم الأب حلماً، فقد ظهر لـه مـلاك، أخبره أن كلـمات واحد من أبنائه ستُعرف، وستَردّدها الأجيال المقبلة في العالم بآسره.

أفاق الرجل العجوز وهو يبكي من الفـرح لأن الحيـاة أظهـرت لـه سخاءها، وتجلّى له الوحي يبشّره برؤيا تجعل أي والد في غاية الفخر.

وبعد زمن وجيز، مات الأب وهـو يحـاول إنقـاذ طفـل أوشـك أن يُدهس تحت عجلات عربة، ولأنه كان عـادلاً وطيّبـاً في سـلوكه طيلـة

حياته، فقد صعدت روحه إلى السماء مباشرة، وهناك التقى الملاك الـذي كان قد تراءى له في الحلم.

قال له الملاك:

- لقد كنتَ رجلاً طيّباً، عشتَ مُحاطاً بالحب، ومت بكرامة، أستطيع الآن أن أحقق لك واحدة من أمنياتك.

أجاب العجوز:

-الحياة أيضاً كانت جميلة بالنسبة لي، وعندما ظهرت لي في الحلم، قد فهمت أن في هذا مباركة لي، لأن أشعار ولدي ستبقى في ذاكـرة النـاس إلى الأبد، فأنا ليس لدي أيّ طلب من أجل نفسي، غير أن كل أب يعتـزّ بمشاهدة من رعاه صغيراً وهذّبه يافعاً، ذائع الصـيت، أتمنـى أن تريـني كلمات ابني في المستقبل البعيد.

ربّت الملاك على كتف العجوز، ثم انطلقا معـاً إلى المسـتقبل البعيـد، فشاهدا أمامهما ساحة مكتظّة بآلاف الناس الذين يتكلّمون بلغة غريبة، فبكى العجوز فرحاً، وقال للملاك:

- كنت أعلم أن أشعار ابني جميلة وخالدة، ألا تريد أن تقـول لي أيّـا من قصائده التي يرددها هؤلاء الآن؟ اقترب منه المـلاك عندئـذٍ، بكثـير من اللباقة، وجلسا على أحد مقاعد تلك الساحة الفسيحة، وقال له:

- قصائد ابنك الشاعر، كانت مشهورة جداً في رومـا، وكـل النـاس

قد أحبوها، واستمتعوا بها، ولكن عندما انتهى حكم تيبريوس، فإنهم نسوها، والكلمات التي يردّدها هؤلاء الناس الآن، هي كلمات ابنك الآخر، الجندي.

نظر العجوز للملاك بدهشة، وتابع الملاك:

- ابنك ذهب للخدمة العسكرية في ولاية بعيدة، وأصبح قائد المائة (سانتوريون) وكان رجلاً طيّباً وعادلاً، وذات مساء، مرض أحد خدمه وأشرف على الموت، وسمع ولدك برجل اسمه يسوع، كان يشفي المرضى، فقضى أياماً طوالا فى البحث عنه، وأثناء تجواله، اكتشف أن من يبحث عنه هو كلمة الله، وقد التقى أشخاصاً آخرين، وقدّر لهم الشفاء على يديه.

فبدأ يتعلّم تعاليمه، ورغم أنه قائد مئة، فقد اعتنق دينه، وذات صباح ،وصل أخيراً ،إلى جوار يسوع، وروى له أن أحد خدمه كان مريضاً وأبدى يسوع استعداده لمرافقته حتى بيته، لكن قائد المائة، كان رجلاً مؤمناً، فعندما نظر إلى يسوع بعمق، أيقن أنه كان بحق يقف أمام كلمة الله، فقد كان الناس المحيطون به ينهضون إجلالاً له.

قال الملاك للعجوز :

كانت هذه كلمات ابنك، الكلمات لم تكن لتُنسى إطلاقاً:

((أيها الحبر العظيم ، يا كلمة الله ،أنا لست أهلاً أن تدخل تحت سقف بيتي، لكن قل كلمة واحدة ،فيبرأ بها خادمي)).

حثّ الخيميائي حصانه على السير. وقال:

- على أية حال، إن كل شخص على الأرض يـؤدي دوراً أساسـياً في تاريخ العالم وهو لا يدري.

ابتسم الشاب، فلم يكن قد تصوّر إطلاقاً، أنه من الممكن للحياة أن تكون مهمّة جداً بالنسبة لراعٍ.

قال الخيميائي:

-وداعـــاً.

أجابه الشاب:

- وداعـــاً.

مشى في الصحراء لمدة ساعتين ونصف، محاولاً الإصغاء بانتباه لحديث قلبه، فهو الذي سيكشف له المكان المخبأ فيه الكنز.

وهو يتذكّر ما قاله الخيميائي: ((حيث يكون كنزك، يكون قلبك)).

لكن قلبه كان يتحدّث عن أشياء أخرى، فقد كان يروي بكبرياء سيرة راعٍ ترك أغنامه من أجل اللحاق بحلم حلم به مرّتين، كان يتحدّث عن الأسطورة الشخصيّة، بالنسبة لكل الرجال الذين قد عملوا الشيء نفسه، ورحلوا بحثاً عن أراضٍ جديدة، أو نساء حسناوات، متصدّين لرجال عصرهم، بما حملوا من أفكار وادّعاءات.

طيلة هذه المسافة، كان يتحدّث عن الاكتشافات، عن الكتب، عن الاضطرابات الكبيرة، وبينما كان يجهّز نفسه لتسلّق أحد الكثبان، سمع قلبه يهمس: ((انتبه جيّداً إلى المكان الذي ستبكي فيه، لأنه هو المكان الذي أوجد أنا فيه، وهو المكان الذي تجد فيه كنزك)).

أخذ يتسلّق ببطء، كانت السماء مليئة بالنجوم، والبدر يضيئهما من جديد، كانا قد مشيا شهراً كاملاً في الصحراء، وهاهو القمر يضيء الصحراء، وأخذ سحر الظلال يعطي الصحراء هيئة البحر الهائج، كان يعود ويذَكّر الشاب باليوم الذي أرخى فيه لجام حصانه، وأعطى للخيميائي العلامة التي كان ينتظرها.

كان ضوء القمر يغمر صمت الصحراء، وذلك السفر الطويل الذي

يقوم به الرجال بحثاً عن الكنوز. وعندما وصل بعد عدة دقائق إلى قمّـة الكثيّب، خفق قلبه في صدره: هاهي ذي أمامه تنتصب بعظمة وجلال، أهرامات مصر، يضيئهما ضوء القمر.

جثا على ركبتيه وبكى، وشكر الله لأنه آمن بأسـطورته الشخصـيّة، وللقائه ذات يوم ملكاً وتاجراً وانكليزياً وخيميائيـاً، وفـوق كـل ذلـك لقاؤه بامرأة من الصحراء، جعلته يدرك، أنه لا يمكـن للحـب أبـداً أن يبعد الإنسان عن أسطورته الشخصيّة.

كانت الأهرامات بما مر عليها من أجيال، تراقـب مـن عليائهـا ذاك الذي عند أقدامها، لو أراد، لكان باسـتطاعته الآن العـودة إلى الواحـة، والزواج من فاطمة، والعيش كراعٍ بسـيط للغـنم، لأن الخيميـائي كـان يعيش في الصحراء، وعلى الرغم من أنه يفهم لغة العالم، وعلى الرغم من انه استطاع تحويـل الرصـاص إلى ذهـب، ولم يكـن بحاجـة لأن يشرح لأحد علمه وفنّه. وبينما هو ذاهب لتحقيق أسطورته الشخصيّة، كان قد تعلّم كل ما كان بحاجة لمعرفته، وعاش كل ما حلم أن يعيشه.

هاهو ذا قد وصل إلى كنزه، والإنجاز لا يتم إلا عنـد إدراك الهـدف، هناك من على قمة الكثيّب بكى. فنظر إلى الأرض، فرأى في المكان الذي سقطت فيه دموعه (جُعلاً) يمشي، وقد تعلّم مما أمضاه في الصـحراء أن (الجعلان)، رمز للإله في مصر.

إنهـا علامـة أيضـاً، لـذلك فقـد بـدأ يحفـر، متـذكّراً تـاجر الأواني

الزجاجية: حتى لو أمضى الإنسان حياته كلّها في تكويم الأحجار، فإنه لن ينجح إطلاقاً في بناء هرم في حديقته.

حفر في المكان المحدد طيلة الليل، دون أن يجد شيئاً، ومن أعالي الأهرامات، كانت القرون الغابرة تتأمّله بصمت، لكنّه لم يتراجع، كان يحفر ويحفر دون توقف، مصارعاً الريح التي كانت تعيد أكثر من مرة الرمل إلى داخل الحفرة، وتعبت يداه وجُرحتا، لكنه استمر بالاعتقاد بقلبه، وقلبه قال له أن يحفر في المكان الذي ستسقط فيه دموعه.

فجأة، وبينما كان يحاول انتزاع بعض الأحجار التي كان قد كشف عنها في الصباح، سمع وقع خطى...

بضع رجال كانوا يقتربون، وبما أن القمر كان خلفهم فإنه لم يستطع رؤية عيونهم أو وجوههم.

سأل أحد القادمين:

- ماذا تفعل هنا؟

لم يجب بشيء، لكنه خاف، فعليه أن ينبش كنزه من التراب ولهذا خاف.

قال آخر:

- نحن لاجئو حرب، ونريد أن نعرف ما تخبئ هنا، فنحن بحاجة إلى المال.

أجاب الشاب:

- أنا لم أخبئ شيئاً.

لكن أحد الرجال أخذه من ذراعه، وجرّه خارج الحفرة، وأخذ آخر بتفتيشه.

ووجدوا قطعة الذهب التي كانت في إحدى جيوبه.

فقال أحد المهاجمين:

- إنه يملك الذهب.

أضاءت أشعة القمر وجه ذلك الذي كان يفتّشه، وفي عينيه رأى حتفه.

قال آخر:

- لابد أن يكون لديه أيضاً من الذهب المخبأ في الأرض.

اجبروه على مواصلة الحفر، ولأنه لم يجد شيئاً فقد انهالوا عليه ضرباً.

ضربوه كثيراً، حتى ظهور خيوط الشمس الأولى، ثيابه صار ممزقاً وأحسّ بأن الموت صار قريباً منه.

ردد في نفسه:

((ما نفع المال، إن كان على المرء أن يموت؟ فإنه لمن النادر أن يستطيع المال إنقاذ أحد من الموت)) . هكذا قال الخيميائي.

وأخيرا، أجابهم:

- أبحث عن الكنز

وعلى الرغم من الجروح التي أدمت فمه المتوّرم إثـر اللكـمات التـي تلقّاها، فقد روى لمهاجميه أنه كان قـد حلـم مـرّتين بكنـزٍ مطمـور عـلى مقربة من أهرامات مصر.

ذاك الذي يبدو عليه زعيمهم، بقي صامتاً لفترة، ثم توجّه إلى واحـد من أتباعه.

- نستطيع أن نتركه ينصرف، فليس معه شيء آخر، وهذا الذهب قد سرقه على الأرجح.

سقط الشاب منكبّاً على الأرض، وثمة عينان اثنتان كانتا تبحثان عن عينيـه، لقـد كـان زعـيم العصـابة، لكـن الشـاب كـان ينظـر صـوب الأهرامات.

قال الزعيم لأصحابه:

- هيا بنا نذهب!

ثم التفت نحو الشاب قائلاً:

- لن تموت، سوف تعيش، وتعلم أنه ليس من حـق المـرء أن يكـون غبيّاً بهذا القدر، فهنا بالضبط، وفي هذا المكان الذي أنت فيه الآن ومنـذ عامين تقريباً، كنت قد حلمت بحلم تكرر، حلمتُ أنه كان ينبغـي عـليَّ

الذهاب إلى إسبانيا، أبحث في الريف عن كنيسة صارت أطلالاً، حيث كان الرعاة يذهبون إليها غالباً مع أغنامهم، حيث تنبت شجرة جميز في المذبح، وأنني لو حفرت عند أسفل شجرة الجميز، لوجدتُ كنزاً مخبّأ، لكنني لستُ غبيّاً للحد الذي يجعلني أجتاز الصحراء كلّها، فقط لأنني حلمت بالحلم نفسه مرّتين، ثم انصرف.

نهض الشاب بصعوبة، ونظر مرة أخرى إلى الأهرامات.

ابتسمت له الأهرامات، وابتسم لها هو بالمقابل، وقلبه مفعم بالفرح.

لقد عثر على الكنز !!!!!!!

الخاتمة

كان يدعى سانتياغو .

وصل إلى الكنيسة الصغيرة المهجورة، عندما كان الليل على وشك الهبوط .

كانت شجرة الجميز ما تزال في المذبح، وكان ما يزال بالإمكان رؤية النجوم تلمع من خلال السقف المتهدّم، وتذكّر أنه جاء ذات مّرة إلى هنا مع أغنامه، وكان قد أمضى ليلة هادئة باستثناء الحلم الذي رآه.

إنه هنا الآن بلا قطيعه لكن كان معه مجرفة.

بقي وقتاً طويلاً يتأمّل السماء، ثم تناول من جعبته زجاجة من الخمر، وفجأة تذكّر تلك الليلة في الصحراء، والتي شاهد فيها النجوم وشرب الخمر أيضاً مع الخيميائي، لقد تذكّر كل الدروب التي سلكها، والطريقة الغريبة التي أظهر الله بها كنزه، ولو أنه لم يكن يؤمن بالأحلام التي كانت تتكرّر، لما كان قد التقى الغجريّة، ولا الملك العجوز، ولا اللص، ولا ... ،القائمة طويلة جداً.

قال في نفسه:

((هذا صحيح، لكن الدرب كانت مرسومة بالإشارات، ولم يكن هناك سبب لأضلّ الطريق)).

نام دون أن يعرف كيف نام، وعندما أفاق، كانـت الشـمس في أوج إشراقها، عندها أخذ يحفر عند أسفل شجرة الجميز.

حدّث نفسه:

- أيها الساحر العجوز، كيف تحيط علماً بكـل شيء، حتـى أنـك قـد تركت لي قليلاً من الذهب كي أستطيع العودة حتى هذه الكنيسة.

لقد ضحك الراهب كثيراً عنـدما رآني أعـود بثـوب رث ممـزّق، ألم يكن بإمكانك أن توفّر علي كل هذا العناء؟

سمع الريح تجيبه:

- لا، فلو أخبرتك بذلك ،لما شاهدت الأهرامات، أليست جميله ؟

كان هذا هو صوت الخيميائي، ابتسم ثم أخذ يحفـر، وبعـد انقضـاء نصف ساعة، اصطدمت المجرفة بشيء قاس، وبعد سـاعة، كـان أمامـه صندوق مليء بقطع الذهب الأسبانيّة القديمة، وكان فيها أيضاً أحجـار كريمة، وأقنعـة ذهبيّـة مزيّنـة بـريش أحمـر وأبـيض، وتماثيـل مرصّـعة بالألماس، إنها مخلّفات غزو، كانت البلاد قـد نسيتها منـذ زمـن بعيـد، وكان الفاتح قد نسي أن يذكرها إلى أحفاده.

سحب من جعبته ((أوريـم وتـوميم))، فهـو لم يكـن قـد اسـتخدم هاتين الحجرين إلا مرة واحدة ذات صباح في السوق الأسبوعي.

الحياة ودربه كانتا محفوفتين دائماً بالإشارات.

وضع «أوريم وتوميم» في صندوق الذهب، فهاتان الحجران تمثّلان هنا أيضاً جزءاً من كنزه، فربّما تذكّرانه بذلك الملك العجوز الذي لن يلتقي به بعد الآن أبداً.

قال في سرّه:

«في الحقيقة، إن الحياة كريمة جداً، مع من يعيش أسطورته الشخصيّة».

وتذكّر عندئذٍ بأن عليه الذهاب إلى مدينة (طريفة)، ليعطي العُشر من كل هذا للغجريّة.

قال لنفسه:

- كم الغجر أذكياء ! فربّما لأنهم يرتحلون كثيراً.

لكن الريح أخذت تعصف، إنها الريح الشرقيّة القادمة من إفريقيا، فهي لم تكن تحمل رائحة الصحراء، ولا خطر غزو عربي.

وعِوضاً عن ذلك، كانت تحمل رائحة عطر يعرفه جيّداً، وهفيف قبلة ترف بعذوبة، لتنطبع على شفتيه.

ابتسم، تلك هي قبلتها الأولى.

وصاح قائلاً:

- ها أنذا يا فاطمة، إني قادم.

كتب أخرى للأديب العالمي

باولو كويليو

- الخيميائي
- بريدا.. أسطورة الحب والحرية
- فتيات فالكيرى
- مكتـــــوب
- كالنهر الذي يجري
- فارس النور
- الحياة.. وقصص أخري
- حياة محارب (السيرة الذاتية)



www.ecabook.com

الخيميائي

حققت رواية الخيميائي نجاحا عالميا، جعل كاتبها من أشهر الكتاب العالميين، ولكن أهم ما يدعو إلى قرائتها أنها مستمدة من التراث العربي، وتستلهم الفلسفة العربية الإسلامية في البحث عن السعادة والمغامرة والتفاعل مع الحياة والكون، وفهم الناموس العام الذي ينظم ويدير الكائنات والمجرات من أصغرها إلى أعظمها في منظومة واحده.

النـاشــر

انها رواية لكل الاعمار، رواية يستطيع أن يأخذ او يغرف القارىء منها حسب قدرته وطاقته، فكما يمكن ان تشفي غليل فتى باحث عن قصة مشوقة يمكن ان تشفي غليل قارىء مثقف.

بهاء طاهر

إنه كتاب جميل عن سحر الحلم والكنوز، التي نبحث عنها في مكان آخر، ثم نجدها على عتبة دارنا

النجمة العالمية مادونا

الخيميائى خرافة أخاذة عن القدر

جريدة الإندبندنت البريطانيه

الخيميائى قصة خرافية مدهشة، إنها كناية عن حياة كل فرد

رئيس الوزراء الإيطالي